المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدمياط الجديدة

رحمة سيدنا محمد ﷺ في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية

الدكتور
وردة عبد الرحمن عبد السميع
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
كلية الدراسات الإسلامية العربية للبنات بالزقازيق
جامعة الأزهر

العدد الثامن عشر (يونيو ٢٠٢٥م)
الترقيم الدولي/ ISSN (2356- 6353)
الترقيم الدولي الإلكتروني/ (2636- 2716)
رقم الإيداع بدار الكتب / (2013/ 18766)

رحمة سيدنا محمد – ﷺ – في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى الانطلاق من كون الرسول- ﷺ-، جمع مكارم الاخلاق، حيث توّجه ربه- جلّ وعلا- بتاج الكمال كله، فكان خلقه- ﷺ- القرآن، تأدب بآدابه وامتثل أوامره، فجمع- ﷺ- كل فضيلة، وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك شرف النسب، وكمال العقل، وشدّة الحياء، والسخاء، والصدق، والشجاعة، والصبر، والزهد، والتواضع، والعدل، والعفو، وكظم الغيظ، والصفح، والمعاملة بالتي هي أحسن، والرأفة، والرحمة، وكل ما هو من مكارم الأخلاق، فقد بعث- ﷺ- ليتمم مكارم الأخلاق، ومن مكارم أخلاقه- ﷺ-، خلق الرحمة ولذا كان البحث عن: رحمة سيدنا محمد- ﷺ- في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية. حيث زين الله تعالي، سيدنا محمدا- ﷺ- بزينة الرحمة، فقد فطرت نفسه الزكية، بخلق الرحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة، فقد خصه الله تعالي بوصف

الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء، إذ من خصائص رحمته- سبحانه- علي النبي- ﷺ- أن قوّاه حتى صحب قومه، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، فلان لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إياه راحما، إذ كان لينه- ﷺ- لينا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة، فرحمته- ﷺ- لا تقف عند الجانب الشخصي من قول وسلوك فقط، بل قرنها الجانب الدعوي المتمثل في حرصه- ﷺ- لإنجاء قومه من النار والفوز بالجنة، فرحمته- ﷺ- عامة للإنس، والجن، والحيوان، والطير وحتي الجماد إذ حن له جذع النخل، فأسرع إليه النبي فاحتضنه- ﷺ- حتي سكن.

فقد أحاطت الرحمة بتصاريف شريعته المحمدية، لأنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، والكتاب المنزل عليه- ﷺ- هدي ورحمة لمن آمن به و اتبعه وتمسك به، فرحمته- ﷺ- في ضوء القرآن الكريم جديرة بالعناية والدراسة للاقتداء بهديه- ﷺ- والسير علي نهجه.

الكلمات المفتاحية: رحمة، سيدنا محمد، دراسة، موضوعية.

The research aims to proceed from the fact that the Messenger, peace be upon him (pbuh), embodied the noblest of morals. His Lord, the Almighty, crowned him with the wreath of all perfection. Thus, his character, peace be upon him, was the Qur'an; he was disciplined by its etiquette and complied with its commands. He, peace be upon him, combined every virtue and possessed every beautiful trait. Among these are nobility of lineage, perfection of intellect, intense modesty, generosity, truthfulness, courage, patience, asceticism, humility, justice, forgiveness, restraint of anger, pardon, treating others in the best manner, compassion, and mercy, and all that constitutes noble morals. He, peace be upon him, was sent to perfect noble morals.

Among his noble morals, peace be upon him, is the quality of mercy. Therefore, the research focuses on: "The Mercy of our Master Muhammad (pbuh) in the Light of the Holy Qur'an: An Objective Study." God Almighty adorned our Master Muhammad (pbuh) with the ornament of mercy. His pure soul was innately disposed to the quality of mercy, and all his characteristics and attributes are mercy. God Almighty singled him out with the description of mercy and did not describe any other prophet with it. Among the characteristics of His mercy—glory be to Him—upon the Prophet (pbuh) is that He strengthened him to accompany his people and to be patient in delivering the message to them. The Messenger was gentle with them by God's permission and His making him merciful. His gentleness, peace be upon him, was a gentleness without any negligence of their interests, nor any indulgence in religious laxity. Therefore, he was truly worthy of the name of mercy.

His mercy, peace be upon him, is not limited to the personal aspect of speech and behavior alone, but is coupled with the aspect of Da'wah (the call to Islam), represented in his keenness, peace be upon him, to save his people from the Hellfire and for them to attain Paradise. His mercy, peace be upon him, is universal, extending to humans, jinn, animals, birds, and even inanimate objects, as the palm trunk yearned for him, and the Prophet, peace be upon him, hastened to it and embraced it until it calmed down.

Mercy has encompassed the applications of his Muhammadan law (Sharia), for it is the most merciful of laws to people. The book revealed to him, peace be upon him, is a guidance and a mercy for those who believe in it, follow it, and adhere to it. Therefore, his mercy, peace be upon him, in the light of the Holy Qur'an is worthy of attention and study in order to emulate his guidance, peace be upon him, and follow his path.

Keywords: Mercy, Sayyiduna Muhammad, Study, Objective.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد عبده، ورسوله، وصفيه من بين خلقه وحبيبه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله تعالى به الغمة، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وبعد...

فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد، أنزله الله– عز وجل – بلسان عربي مبين، تحدى به الإنس والجن أجمعين، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور منه، أو بأقصر سورة منه، بل عجزوا عن مجاراته، فهو الذي لا تنفذ عجائبه، كاملاً في إعجازه، وفصاحته وبلاغته معنى، ونظمًا، فكل حرف قد وضع في موضعه السديد المتناسب مع سياق نظمه.

وهذا القرآن الكريم يحوي في ثناياه مكامن أسراره، ووجوه إعجازه، والتي من أظهرها – مكارم الأخلاق، والتي لا يغفل عنها أي مشتغل بالتفسير من أي زاوية.

فهي واحدة من أعمدة البناء الإنساني، وبها وعليها تظهر دلائل الشخصية المحمدية، وأسرارها.

فمن مكارم أخلاقه – ﷺ – خلق الرحمة حيث زين الله تعالي سيدنا محمد – ﷺ – بزينة الرحمة، فقد فطرت نفسه الزكية بخلق الرحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة، فقد خصه الله تعالي بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فقدأحاطت الرحمة بتصاريف شريعته المحمدية، ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم، وبذلك فهي جديرة بالعناية والدراسة، للاقتداء بهديه– ﷺ– والسير على نهجه، وعلى مشارف هذه الملامح الشريفة، خلق رحمته – ﷺ– فاستعنت بالله — تعالى – للدراسة الموضوعية، لرحمته – ﷺ– وتقديمها في ثوب نظري، تطبيقي، في ضوء القرآن الكريم.

فجاء هذا البحث تحت عنوان: **رحمة سيدنا محمد – ﷺ – في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية.**

أولاً: أهمية الموضوع:

١ – إن الدراسة الموضوعية لرحمته – ﷺ– في مجال التفسير خاصة، من المهمات التي لا يستغني عنها، إذ معظم الفضائل التي تتعدي آثارها النافعة للآخرين ترجع إلي خلق الرحمة.

٢ – إن رحمته – ﷺ– لا تقف عند الجانب الشخصي، من قول وسلوك فقط، بل تتعدي الجانب الدعوى، المتمثل في حرصه – ﷺ – لإنجاء قومه من النار، والفوز بالجنة.

٣ – العناية بالدراسة الموضوعية لآيات رحمته، في ضوء القرآن الكريم، تبرز آثار رحمته

-ﷺ- المتعددة في القرآن الكريم.

ثانيًا: أهداف الموضوع:

١ - محاولة استقرائية، لآيات رحمته - ﷺ - في ضوء القرآن الكريم.

٢ - محاولة كشفية – موجزة - عن آثار رحمته - ﷺ - المتعددة في القرآن الكريم، من صبر، وخفض جناح، وعفو، وصفح، وإعراض عن الجاهلين، والمعاملة الحسنة للمؤمنين وغيرهم.

٣ - محاولة تبينية للمعني التفسيري لرحمته - ﷺ- الممثلة في الشريعة الإسلامية، والقرآن الكريم، كتتمة لموضوع البحث وإكمالا لفائدته.

ثالثًا: مشكلات البحث وأسئلته:

تعد الدارسة في هذا البحث محاولة للإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسة الآتية:

١ - ما مفهوم الرحمة وآثارها من صفح وغيره في اللغة وفي الاصطلاح؟ وما الفرق بين رحمة البشر، ورحمة الله عز وجل، وما الفرق بين صفتي الرحمن والرحيم؟

٢ - ما آثار رحمته - ﷺ- للعالمين، من خلال الدراسة الموضوعية لآيات رحمته، وما ينتج عنها من صبر، وخفض جناح، وعفو، وصفح، وإعراض عن الجاهلين، والمعاملة الحسنة للمؤمنين وغيرهم، في ضوء القرآن الكريم؟

٣ - ما آثار رحمته- ﷺ - للعالمين من خلال نعت القرآن الكريم، والشريعة الاسلامية بالرحمة، في ضوء القرآن الكريم؟

رابعًا: حدود البحث:

تتحدد حدود هذا البحث في رحمة سيدنا محمد- ﷺ – في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية.

خامسًا: الدراسة السابقة:

لم يخلو مصنف من مصنفات التفسير الكامل، للقرآن الكريم من تفسير آيات الرحمة، إلا أن لكل مفسر منهجه الخاص به، هذا وبحثت عن تفسير مفرد، أو دراسة موضوعية عن رحمته -ﷺ-، فوجدت خطب، ومقالات ودراسات منها: *مظاهر رحمة النبي -ﷺ- بأمته في الدور الثلاثة، - وهي تتمثل في خطب ثلاث عامة وموجزة -* ونماذج من الرحمة عند النبي- ﷺ- وتتمثل في الأحاديث الواردة عنه - ﷺ -* رحمة النبي- ﷺ- بالخلق، وهي تتمثل في مقالات عامة وموجزة، *الرحمة المهداة مظاهر الرحمة بالبشر في شخصية النبي - ﷺ- وهي دراسة عامة عن الرحمة في الفكر الإنساني، وفي المنظور الفلسفي، وفي مواثيق حقوق الانسان الدولية، وتوجد مواضع متناثرة عامة عن رحمته- ﷺ-... وانفرد هذا البحث - علي حد علمي - بفضل الله تعالى، بدراسة موضوعية لرحمته -ﷺ- في ضوء القرآن الكريم —.

سادسًا: منهج البحث:

يقوم هذا البحث على المنهج الاستقرائي، من خلال الجمع والدراسة والتحليل، لاستخراج المعني التفسيري الموضوعي لرحمته - ﷺ - ودلائلها القيمة، تطبيقا سلوكيا في شخصه الكريم- ﷺ- وفي الكتاب المنزل عليه — القرآن الكريم -، وفي شريعته الغراء، وأتى هذا المنهج في الخطوات الآتية:

١ - بيان المعاني اللغوية والاصطلاحية لمفاهيم ومصطلحات هذا البحث.

٢ – كتابة الآية القرآنية مطلع الفقرة، بخط المصحف الشريف، ثم استخراج المعني التفسيري لها.

٣ – استقراء المعني التفسيري لآيات الرحمة الخاصة بسيدنا محمد– ﷺ–، في السور القرآنية الكريمة.

٤ – استقراء المعني التفسيري للآثار الناتجة عن رحمته – ﷺ– من صبر، وخفض جناح، وعفو، وصفح، وإعراض عن الجاهلين، والمعاملة الحسنة للمؤمنين وغيرهم، في السور القرآنية الكريمة.

٥ – استقراء المعني التفسيري للآيات المتعلقة برحمته – ﷺ — في نعت القرآن الكريم، والشريعة الاسلامية بالرحمة، في ضوء القرآن الكريم.

٦ – عزو الآيات القرآنية بذكر السورة والآية.

٧ – تخريج الأحاديث النبوية والآثار من مظانها، والحكم عليها إذا كانت في غير الصحيحين أو أحدهما.

٨ – ذكر الوجوه الإعرابية، والنكات البلاغية في حدود ما يحتاجه المعني التفسيري.

سابعًا: خطة البحث:

وقد اشتمل البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وتتمة، وخاتمة، وفهرس للمراجع.

❖ **والمقدمة:** اشتملت على أهمية الموضوع، وأهدافه، ومشكلاته، وحدود البحث، والدراسة السابقة، ومنهجه، وخطته.

❖ **المبحث الأول:** مفاهيم ومصطلحات.

وقد اشتمل على مطلبين:

➢ **المطلب الأول:** مفهوم الرحمة، وآثارها من صفح وغبره في اللغة وفي الاصطلاح.

➢ **المطلب الثاني:** الفرق بين رحمة البشر ورحمة الله عز وجل، والفرق بين صفتي الرحمن والرحيم.

❖ **المبحث الثاني:** آيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية.

❖ **المبحث الثالث:** آثار الرحمة الموصوف بها النبي – ﷺ– في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية.

وقد اشتمل على مطلبين:

➢ **المطلب الأول:** دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها **من صبر،** وعفو وصفح في ضوء القرآن الكريم.

➢ **المطلب الثاني:** دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من خفض جناح، وأمر بعرف، وإعراض عن الجاهلين، ودفع السيئة بالحسنة، في ضوء القرآن الكريم.

❖ **تتمة وخاتمة:**

بعد الدراسة الموضوعية لآيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – وأثارها، وتتمة لهذا الموضوع واكمالا للفائدة المرجوة بفضل الله عز وجل نذكر نبذة موجزة عن وصف القرآن

الكريم، والشريعة الاسلامية بالرحمة، في ضوء القرآن الكريم.

❖ **وخاتمة** ذكرت فيها أهم نتائج البحث وأتبعتها بفهرس للمراجع.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم

وحسبي أني بذلت جهدي والله من وراء القصد

وهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي العربي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين

الباحثة

المبحث الأول

مفاهيم ومصطلحات

وقد اشتمل على مطلبين:

- **المطلب الأول: مفهوم الرحمة، وآثارها من رأفة، وغيرها، في اللغة، وفي الاصطلاح.**
- **المطلب الثاني: الفرق بين مفهوم الرحمة عند البشر، ورحمة الله عز وجل والفرق بين صفتي الرحمن الرحيم.**

المطلب الأول

مفهوم الرحمة، وآثارها من رأفة، وغيرها، في اللغة، وفي الاصطلاح:

مفهوم الرحمة في اللغة:

(رَحِمَ) الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه. والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى. والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحما من هذا، لأن منها ما يكون ما يرحم ويرق له من ولد، فالرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا. والرحمة: المغفرة؛ وقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢)؛ أي فصلناه هاديا وذا رحمة؛ وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ (التوبة:٦١)؛ أي هو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم، رحمه رحما ورحما ورحمة ورحمة؛ ومرحمة. وقال الله عز وجل: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد: ١٧)؛ أي أوصى بعضهم بعضا برحمة الضعيف والتعطف عليه، وترحمت عليه أي قلت رحمة الله عليه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦) وقوله: ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ

﴿ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ (الإسراء: ٢٨): أي رزق، وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾ (هود: ٩): أي رزقا، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧): أي عطفا وصنعا، وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ ﴾ (يونس: ٢١): أي حيا وخصبا بعد مجاعة، وأراد بالناس الكافرين، وترحم عليه: دعا له بالرحمة. واسترحمه: سأله الرحمة، ورجل مرحوم ومرحم شدد للمبالغة، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ١٠٥)؛ معناه يختص بنبوته من يشاء ممن أخبر عز وجل أنه مصطفى مختار، والرحم، بالضم: الرحمة. وما أقرب رحم فلان إذا كان ذا مرحمة وبر أي ما أرحمه وأبره. والرحم والرحم في اللغة: العطف والرحمة؛ وسمى الله الغيث رحمة لأنه برحمته ينزل من السماء. وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ (الكهف: ٢٨)؛ أراد هذا التمكين الذي قال ما مكني فيه ربي خير، أراد وهذا التمكين الذي آتاني الله حتى أحكمت السد رحمة من ربي. والرحم: أسباب القرابة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد، وهي الرحم. الرحم القرابة، والرحم، بالكسر، مثله؛ وذوو الرحم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، يقال: ذو رحم محرم ومحرم، وهو من لا يحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة، الرحم القرابة تجمع بني أب. وبينهما رحم أي قرابة قريبة، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (النساء: ١)؛ من نصب أراد واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ومن خفض أراد تساءلون به وبالأرحام، وهو قولك: نشدتك بالله وبالرحم[١].

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبوالحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبدالسلام محمد هارون، كتاب الراء، [باب الراء والحاء وما يثلثهما]، (٢/ ٤٩٦) ط: دار الفكر، ولسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٣٠: ٢٣٣) بتصرف وإيجاز.

الرأفة في اللغة:

(رأف) الراء والهمزة والفاء كلمة واحدة تدل على رقة ورحمة، فالرَّأْفَةُ: الرّحمة، يقال رؤف

يرؤف رأفة ورآفة، على فعلة وفعالة. قال اللهُ جل وعلا: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ (النور:٢)، وقرئت: رآفة، ورجل رءوف على فعول، ورؤف [على] فعل. قال في رءوف: هو الرحمن كان بنا رءوف[١].

الصبر في اللغة:

(صبر) الصاد والباء والراء أصول ثلاثة، الأول الحبس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنس من الحجارة.

فالأول: الصبر، وهو الحبس. يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر، أي حبستها.

ومن الباب: الصبير، هو الكفيل، وإنما سمي بذلك لأنه يصبر على الغرم. يقال: صبرت نفسي به أصبر صبرا، إذا كفلت به، فأنا به صبير. وصبرت الإنسان، إذا حلفته بالله جهد القسم.

وأما الثاني فقالوا: صبر كل شيء: أعلاه. قالوا: وأصبار الإناء: نواحيه، والواحد صبر.

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (٢/ ٤٧١)، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (ص: ٣٧٣)

وأما الأصل الثالث فالصبرة من الحجارة: ما اشتد وغلظ، والجمع: صبار، فالصَّبْرُ: حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فَالصَّبْرُ لفظ عامّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النّفس لمصيبة سمّي صبرا لا غير، ويُضَادُّهُ الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي رحب الصّدر، ويضادّه الضّجر، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتمانا، ويضادّه المذل(١).

العفو في اللغة:

(عفو) العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه. ثم يرجع إليه فروع كثيرة لا تتفاوت في المعنى.

فالأول: العفو: عفو اللهِ – تعالى – عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم، فضلا منه. قال الخليل: وكل من استحق عقوبة فتركته فقد عفوت عنه. يقال: عفا عنه يعفو عفوا. وهذا الذي قاله الخليل صحيح، وقد يكون أن يعفو الإنسان عن الشيء بمعنى الترك، ولا يكون ذلك عن استحقاق. ومن الباب العافية: دفاع الله – تعالى – عن العبد، تقول عافاه الله – تعالى – من مكروهة، وهو يعافيه معافاة. وأعفاه الله بمعنى عافاه. والاستعفاء: أن تطلب إلى من يكلفك أمرا أن يعفيك منه.

ومن هذا الباب: العفو: المكان الذي لم يوطأ.

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠)،و المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (ص: ٤٧٤)

وتقول: هذه أرض عفو: ليس فيها أثر فلم ترع. وطعام عفو: لم يمسه قبلك أحد، فهذا معنى العفو، وإليه يرجع كل ما أشبهه[١]. والعفو: عفو الله عن خلقه، والصفح، وترك عقوبة المستحق. عفا عنه ذنبه، وعفا له ذنبه، وعفا عن ذنبه.

والعفو: المحو والامحاء، وأحل المال وأَطيبه، وخيار الشيء وأجوده، والفضل، والمعروف، ومن الماء: ما فضل عن الشاربة، ومن البلاد: ما لا أثر لأحد فيها[٢].

العرف في اللغة:

(عرف) العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة.

فالأول العرف: عرف الفرس. وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه. ويقال: جاءت القطا عرفا عرفا، أي بعضها خلف بعض.

والأصل الآخر المعرفة والعرفان. تقول: عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة. وهذا أمر معروف. وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه، لأن من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه.

ومن الباب العرف، وهي الرائحة الطيبة. وهي القياس، لأن النفس تسكن إليها. يقال: ما أطيب عرفه. قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ (محمد: ٦)، أي طيبها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (٤/ ٥٦، ٥٧، ٥٨).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٤/ ٨٠)، والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادى: ج١/ (ص: ١٣١٣).

والعرف: المعروف، وسمي بذلك لأن النفوس تسكن إليه[١].

الإعراض في اللغة:

(عرض) العين والراء والضاد بناء تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصل واحد، وهو العرض الذي يخالف الطول.

فالعرض: خلاف الطول. تقول منه: عرض الشيء يعرض عرضا، فهو عريض.

قالوا: إذا عدا عارضا صدره، أو مائلا برأسه. ويقال: عرض فلان من سلعته، إذا عارض بها، أعطى واحدة وأخذ أخرى. ومنه: هل لك والعارض منك عائض أي يعارضك فيأخذ منك شيئا، ويعطيك شيئا. ويقال: عرضت أعوادا بعضها على بعض، ومن الباب: أعرضت عن فلان، وأعرضت عن هذا الأمر، وأعرض، ومن الباب: معاريض الكلام، وذلك أنه يخرج في معرض غير لفظه الظاهر، فيجعل هذا المعرض له كمعرض الجارية، وهو لباسها الذي تعرض فيه، وذلك مشتق من العرض.

وكان ابن الأعرابي يقول: الأعراض: الجبال والأودية والسحاب، الواحد عرض. كذا قال بكسر العين، وروي عنه أيضا بالفتح. وقال أبوعبيدة: العرض: سند الجبل[٢].

الصفح في اللغة:

نظر إليه بصفح وجهه، وبصفح وجهه. وضربته على صفحه وصفحته: على جنبه. وجلا صفحتي السيف، وكتب في صفحتي الورقة.

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ج٤/ ٢٨١).

(٢) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ج٤/ ٢٦٩: ٣٧٤).

وتصفح الشيء: تأمله، ونظر في صفحاته. وتصفح القوم: نظر في أحوالهم، ونظر في خلالهم هل يرى فلانا.

وصفحت عنه: أعرضت عن ذنبه وعن تثريبه. وهو أبلغ من العفو، (وقد) يعفو الإنسان ولا يَصفح. وصفحت عنه: أولته صفحة جميلة.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ ﴾ (الزخرف: ٨٩) أمر للنبي – ﷺ – أن يخفف على نفسه كفر من كفر؛ كما قال: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (الحجر: ٨٨).

ومن المجاز ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ (الزخرف: ٥)، وقوله: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ (الحجر: ٨٥) أمر للنبي – ﷺ – بالتجاوز عن جنايات المؤمنين[١].

مفهوم الرحمة في الاصطلاح:

الرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان فهي، رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه[٢].

واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر، وانعطافه نحو حي، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم، والإحسان إليه، ودفع الضر عنه، وإعانته على المشاق، والانعام علي المحتاج، فهي من الكيفيات النفسانية لأنها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبها على أفعال وجودية بقدر استطاعته، وعلى قدر قوة انفعاله، فأصل الرحمة من مقولة الانفعال وآثارها من مقولة الفعل[٣].

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٣/ ٤٢١).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٦٩) الفاتحة ٣، والوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص٢٢٦).

ومن مفهوم الرحمة اصطلاحا أيضا: أنها وردت في القرآن على ثمانية أوجه:

الأول: قالوا هو بعثة الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقوله: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ ﴾ (هود:١٧، الأحقاف: ١٢) وهذه الرحمة العامة المبتدأة بالدعاء والبيان، والوجه أن يقال: أنه أراد أن بعثة للرسل وإنزال الكتب نعمة من الله على عباده، والرحمة من الله النعمة.

الثاني: الجنة، قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٧) وقال: ﴿ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ ﴾ (النساء: ١٧٥) وقال: ﴿ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ ﴾ (الجاثية: ٣٠) وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ (البقرة: ٢١٨) وهي خاصة للمؤمنين جزاء لأعمالهم، وقال أبو علي ﷺ: الرحمة والفضل هنا هو الثواب.

الثالث: المطر، قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٧) وقوله: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ٥٠) يعني: المطر.

الرابع: الرزق، قال: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ (فاطر: ٢) وقيل: وينشر رحمته يعني: رزقه، وقال﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ ﴾ (الإسراء: ١٠٠) وقال: ﴿ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا ﴾ (الإسراء: ٢٨) وقال: ﴿ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ ﴾ (الكهف: ١٠) ويجوز أن تكون هذه كلها بمعنى النعم والرزق داخل فيها.

الخامس: النبوة، قال: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ﴾ (ص: ٩) وقال: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾ (الزخرف: ٣٢).

السادس: الرحمة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ٨٣) [أراد]: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان) فقدم وأخر؛ لأن الناس كلهم آمنوا بفضل اللَّه علم في ألطافه وفوائده، وقوله: ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ (الزمر: ٣٨) وقيل: يعني: العافية، وقوله: ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (الأحزاب: ١٧) يعني: نعمة، وقيل: أراد الفتح والنصر.

السابع: القرآن، قال الله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣) ويجوز أن يكون بمعنى النعمة، أي: هنا القرآن بيان ونعمة.

الثامن: الهداية، قال: ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ (هود: ٢٨) أي: دلني على الإيمان فآمنت وصدقت، وهذا كله يرجع إلى معنى النعمة؛ لأن الرحمة من اللَّه تعالى النعمة، وإنما أوردت هذه الوجوه على ما جاء في التفسير ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣)، ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧)، ولم يجئ رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم الرّحمن الذى هو على زنة فعلان، ألا ترى أَنهم يقولون: غضبان للممتلئ غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواؤه على عرشه بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الفرقان: ٥٩)، فاستوى على عرشه باسم الرحمان؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وفي الصحيح[1] عن أَبى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: التوبة / باب: في سعة رحمة الله تعالي وأنها سبقت غضبه / حديث =

هريرة أن النبي – ﷺ – قال: «لما خلق الله الخَلْق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفى لفظٍ: «سبقت رحمتي غضبي»[(١)].

وزاد الفيروزآبادى عما سبق من معاني الرحمة في القرآن ما يأتي:

- بمعنى توفيق الطاعة والإحسان: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).
- بمعنى الإسلام والإيمان: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ١٠٥).
- بمعنى نعمة العِرفان: ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ (هود: ٢٨) أَى معرفة.
- بمعنى العصمة من العصيان: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ (هود: ١١٩).
- بمعنى العافية من الابتلاء والامتحان: ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ (الزمر: ٣٨).
- بمعنى النجاة من عذاب النيران: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ (النساء: ٨٣).
- بمعنى النصرة على أهل العدوان: ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (الأحزاب: ١٧).
- بمعنى اللألفة والموافقة بين أهل الإيمان: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (الحديد: ٢٧).
- بمعنى الثناء على إبراهيم والولدان: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (هود: ٧٣).
- بمعنى إجابة دعوة زكريا مبتهلا إلى الله المنان: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾

=

رقم ٢٧٥١/ ج ٤ / ٢١٠٨

(١) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص: ٢٢٧، ٢٢٨) الباب العاشر، فيما جاء من الوجوه والنظائر في أوله راء.

(مريم: ٢).

- بمعنى العفو عن ذوى العصيان: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣).
- بمعنى فتح أبواب الروح والريحان: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر: ٢).
- بمعنى الجنة دار السلام والأمان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).
- بمعنى صفة الرحيم الرحمن: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)[1].

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٣/ ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨).

المطلب الثاني

الفرق بين مفهوم الرحمة عند البشر، ورحمة الله –عز وجل–

والفرق بين صفتي الرحمن الرحيم

الرحمة عند البشر: إذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة، إذ لا تكون تعدية فعل رحم إلى المرحوم إلا على هذا المعنى، فليس لماهية الرحمة جزئيات وجودية، ولكنها جزئيات من آثارها.

فالرحمة: رقة تقتضى الإِحسان للمرحوم وقد تستعمل تارة في الرقّة المجردة، وهي الرحمة عند البشر، وتارة في الإِحسان المجرّد عن الرقة، وهي الرحمة عند الله عزوجل.

فالرحمة في بني آدم عند العرب: رقة القلب وعطفه.

وأما رحمة الله عز وجل عطفه وإحسانه ورزقه[١].

فإذا وصف البارئ تعالى بالرحمة فليس يراد به إلا الإِحسان المجرد دون الرقة. وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين. رقة وتعطّف.

فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإِحسان، فركب تعالى في طباع الناس الرقة، وتفرد بالإِحسان»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٦٩) الفاتحة ٣، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥٣/٣)، ولسان العرب (١٢/ ٢٣١).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/ ٥٣).

فوصف الله تعالى بصفات الرحمة في اللغات ناشئ على مقدار عقائد أهلها فيما يجوز على الله ويستحيل، ثم يجيء ذلك في لسان الشرائع تعبيرا عن المعاني العالية بأقصى ما تسمح به اللغات مع اعتقاد تنزيه الله عن أعراض المخلوقات بالدليل العام على التنزيه وهو مضمون قول القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١).

فأهل الإيمان إذا سمعوا أو أطلقوا وصفي الرحمن الرحيم لا يفهمون منه حصول ذلك الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة العربية لسطوع أدلة تنزيه الله تعالى عن الأعراض، بل إنه يراد بهذا الوصف في جانب الله تعالى إثبات الغرض الأسمى من حقيقة الرحمة، وهو صدور آثار الرحمة من الرفق، واللطف والإحسان، والإعانة، لأن ما عدا ذلك من القيود الملحوظة في مسمى الرحمة في متعارف الناس لا أهمية له لولا أنه لا يمكن بدونه حصول آثاره فيهم ألا ترى أن المرء قد يرحم أحدا ولا يملك له نفعا لعجز أو نحوه.

وبهذا فإن إطلاق نحو هذا الوصف على الله تعالى، ليس من المتشابه، لتبادر المعنى المراد منه بكثرة استعماله، وتحقق تنزه الله عن لوازم المعنى المقصود في الوضع مما لا يليق بجلال الله تعالى، كما نطلق العليم على الله مع التيقن بتجرد علمه عن الحاجة إلى النظر والاستدلال وسبق الجهل، وكما نطلق الحي عليه تعالى، مع اليقين بتجرد حياته عن العادة والتكون، ونطلق القدرة مع اليقين بتجرد قدرته عن المعالجة والاستعانة.

فوصفه تعالى بالرحمن الرحيم من المنقولات الشرعية فقد أثبت القرآن رحمة الله في قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦) فهي منقولة في لسان الشرع إلى إرادة الله إيصال الإحسان إلى مخلوقاته في الحياة الدنيا وغالب الأسماء الحسنى من هذا القبيل[١].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٦٩، ١٧٠).

الفرق بين صفتي الرحمن الرحيم:

الرّحمن لا يطلق إلاَّ على الله تعالى مطلقا ومضافا، ولا يصح الرحمن إلاّله تعالى؛ إذ هو الذى وسع كل شيء رحمة وعلما، والرحيم يستعمل في غيره، وهو الذى كثرت رحمته. وقيل: الرحمن عام والرحيم خاص، فالرحمن العاطف بالرزق للمؤمنين والكافرين، والرحيم خاص بالمؤمنين. وقيل: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وقيل رحمن المعاش ورحيم المعاد، وقيل: رحمن الأغنياء ورحيم الفقراءِ، وقيل: رحمن الأصحاء ورحيم المرضى. وقيل: رحمن المصطفين ورحيم العاصِين. وقيل: رحمن الأشباح ورحيم الأرواح. وقيل: رحمن بالنعماء ورحيم بالآلآء. وقيل: الرحمن: الذى الرحمة وصفه، والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣).

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش، في قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٩) يبين بابٌ عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، لا يغلقه التعطيل، والتجسيم.

فصفات الجلال أخص باسم الله، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والرأفة واللطف أخص باسم الرحمن، وكرره في الفاتحة إيذانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

والرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم[١].

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/ ٥٣، ٥٤، ٥٥).

فالله الرحمن الرحيم: بنيت الصفة الأولى على فعلان لأن معناه الكثرة، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين، فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل، والرحيم قد يكون لغيره، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣).

فالرحمن اسم من أسماء الله عز وجل، أي ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأن فعلان بناء من أبنية المبالغة، ورحيم فعيل بمعنى فاعل، ولا يجوز أن يقال رحمن إلا لله عز وجل، وفعلان من أبنية ما يبالغ في وصفه، فالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله، فهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، فالرحمن الرقيق والرحيم العاطف على خلقه بالرزق؛ فالرحمن اسم ممتنع لا يسمى غير الله به، وقد يقال رجل رحيم، فالرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد، إلا أن الرحمن اسم مختص لله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ولا يوصف، ألا ترى أنه قال: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ (الإسراء: ١١٠).

فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره، وهما من أبنية المبالغة، ورحمن أبلغ من رحيم، والرحيم يوصف به غير الله تعالى فيقال رجل رحيم، ولا يقال رحمن[١].

فمعنى الرحمن المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها التي يقصر عنها كل من سواه، والعاطف على جميع خلقه بالرزق لهم لا يزيد في رزق التقي بتقواه، ولا ينقص من رزق الفاجر بفجوره، والرحيم: هو الرفيق للمؤمنين خاصة يستر عليهم ذنوبهم في العاجل،

(١) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٣٠، ٢٣١).

ويرحمهم في الآجل، فمتعلق الرحمن أثر منقطع، ومتعلق الرحيم أثر غير منقطع، فعلى هذا الرحيم أبلغ من الرحمن، وقيل: الرحمن اسم خاص صفة عامة، والرحيم اسم عام صفة خاصة، فإنه يقال: (فلان رحيم) ولا يقال (رحمن)، وقيل: الرحمن أمدح والرحيم ألطف، وقال بعضهم: كل واحد منهما أرق من الآخر من وجه، (والرحيم لا يكلف عباده جميع ما يطيقونه، فكل ملك يكلف عبيده جميع ما يطيقون فليس برحيم)، وليس هذا من باب الترقي، لأنه إنما يتعين إذا كان الأبلغ مشتمل على ما دونه، إذ لو قدم الأبلغ حينئذ كان ذكر الآخر لغوا كما في: (فياض جواد)، و(باسل شجاع) وأما إذا لم يشتمل عليه كما ههنا فيجوز سلوك كل واحد من طريقي التتميم والترقي نظرا إلى مقتضى الحال، وههنا يحمل على الأول، لأن المطلوب بالقصد الأول في مقام العظمة والكبرياء وجلائل النعم، وقدم الرحمن وأردف بالرحيم كالتتمة تنبيها على أن الكل منه لئلا يتوهم أن محقرات النعم لا تليق بجنابه، فلا تطلب من بابه، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما تأكيدا، قيل: جميع أسماء الله ثلاثة أسماء: الذات، وأسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فالتسمية مشتملة على أفضل كل منها، وقيل: كلاهما من الصفات الفعلية، وقيل: من الصفات الذاتية، وقد أشار الله تعالى إلى الرحمة الفعلية بقوله: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ (آل عمران: ٨) لأن الصفة الذاتية لا توهب، وأحسن ما يقال في جمع الوصفين في البسملة أن (فعلان) مبالغة في كثرة الشيء، ولا يلزم منه الدوام كـ(غضبان)، و(فعيل) لدوام الوصف كـ(ظريف) فكأنه قال: الكثير الرحمة الدائمة، وقال بعضهم: مدلولهما واسع فالرحيم: راحم الكل، أحاط الصور، والأسرار مراحمه، وعم الألواح والأرواح مكارمه[١].

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأيوب بن موسى الحسيني (٤٦٧، ٤٦٨).

فالرحيم في أسماء الله تعالى بمعنى المنعم المقيل للعثة القابل للتوبة وليس معناه الرقة، كما أن أصل العفو الترك، والترك لا يجوز على الله، ودلالة التعظيم أيضا يوجب انتفاء الرقة عن الله عز وجل[١].

(١) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص:٢٢٦) الباب العاشر، فيما جاء من الوجوه والنظائر في أوله راء.

المبحث الثاني

آيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – دراسة موضوعية

في ضوء القرآن الكريم

قبل البدء في الدراسة الموضوعية لآيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – يجدر بنا أن نذكر نبذة موجزة عن خلقه العظيم وذلك في رحاب قوله– عز وجل–: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

فقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: لا يدرك شأوه أحد من الخلق، ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يحتمله أمثالك من أولي العزم، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، أي أدب عظيم. وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. فعن سعد بن هشام قال قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله – ﷺ –، قالت: (ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت: فإن خلق نبي الله كان القرآن)[(١)].

وأرادت بذلك على ما قيل إن ما فيه من المكارم كله كان فيه – ﷺ –، وما فيه من الزجر عن سفساف الأخلاق كان منزجرا به عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالخطاب بالقصد الأول: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وهذا كالتفسير لقوله: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة، والأفعال المرضية، والفصاحة التامة، والعقل الكامل، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، كانت ظاهرة منه، وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافي حصول الجنون، فكذب من أضافه إليه وضل، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف

(١) أخرجه أحمد في مسنده – حديث رقم ٢٤٢٦٩ – (٤٠/ ٣١٥) ط: الرسالة.

به.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عنه من نهي الله، أي: إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل: المعنى: إنك على طبع كريم، إذ حقيقة الخلق ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب.

وإنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمدا بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكأن كل واحد منهم كان مختصا بنوع واحد، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم.

وكلمة (على) في قوله: ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

فنفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب، وإلى كل ما يتعلق بها، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة.

قال أنس: «خدمت رسول الله – ﷺ – عشر سنين، والله ما قال لي أفا قط، ولا قال لي لشي فعلته لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»[(١)].

فقد وصف الله تعالى ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم، فقال: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣) ووصف ما يرجع إلى قوته العلمية بأنه عظيم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء، فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة[(٢)] فصلوات ربي وسلامه عليك سيدي يا رسول الله.

فإن من خصائص رحمته – سبحانه– علي النبي – ﷺ — أن قوّاه حتى صحب قومه، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، فلان لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إياه راحما، إذ كان لينه –ﷺ— لينا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

لما انهزم القوم عن النبي – ﷺ – يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول – ﷺ – بالتغليط والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الفضائل – باب: كان رسول الله أحسن الناس خلقا – حديث رقم ٢٣٠٩، (٤/ ١٨٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٦٠١، ٦٠٢)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١٩)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٩/ ٢٩٦، ٢٩٧)، وروح المعاني للألوسي (١٥/٢٩).

الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، زاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول -ﷺ- على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

فإن من خصائص رحمته - سبحانه- عليه أن قواه حتى صحبهم، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم - مع سلطان ما كان مستغرقا له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم؟! ألا ترى إلى موسى - عليه السلام - لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرّه إليه؟

فالفاء للتفريع على ما اشتمل عليه الكلام السابق الذي حكي فيه مخالفة طوائف لأمر الرسول من مؤمنين ومنافقين، وما حكي من عفو الله عنهم فيما صنعوا. ولأن في تلك الواقعة المحكية بالآيات السابقة مظاهر كثيرة من لين النبي - ﷺ - للمسلمين، حيث استشارهم في الخروج، وحيث لم يثربهم على ما صنعوا من مغادرة مراكزهم، ولما كان عفو الله عنهم يعرف في معاملة الرسول إياهم، ألان الله لهم الرسول تحقيقا لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا الله عنهم برحمته فلان لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إياه راحما والباء للمصاحبة، أي لنت مع رحمة الله: إذ كان لينه في ذلك كله لينا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة.

وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة.

وزيدت (ما) بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيه من القصر، فتعين بزيادتها كون التقديم للحصر، لا لمجرد الاهتمام.

(ما) في قوله: فبما رحمة من الله صلة زائدة، وهاهنا يجوز أن تكون (ما) استفهاما للتعجب تقديره: فبأي رحمة من الله لنت لهم، وذلك لأن جنايتهم لما كانت عظيمة، ثم إنه ما أظهر ألبتة، تغليظا في القول، وهذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني وتسديد إلهي، فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد والتسديد، فقيل: فبأي رحمة من الله لنت لهم.

وهذه الآية دلت على أن رحمة الله هي المؤثرة في صيرورة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رحيما بالأمة، واللين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات. ودل فعل المضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خلقه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقه كذلك ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، فخلق الرسول مناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله، لأن الرسول يجيء بشريعة يبلغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه، ولا يتأثر بخلق الرسول، وهو أيضا مأمور بسياسة أمته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم.

أرسل محمد – ﷺ – مفطورا على الرحمة، فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحبا لرحمة من

الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغي الشريعة للعالم.

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق. وورد أن صفح النبيء – ﷺ – وعفوه ورحمته كان سببا في دخول كثير في الإسلام.

فضمير لهم عائد على جميع الأمة كما هو مقتضى مقام التشريع وسياسة الأمة، وليس عائدا على المسلمين الذين عصوا أمر الرسول يوم أحد، لأنه لا يناسب قوله بعده: ﴿ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ إذ لا يظن ذلك بالمسلمين، ولأنه لا يناسب قوله بعده: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ إذا كان المراد المشاورة لاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظا لنفرك كثير ممن استجاب لك فهلكوا، أو يكون الضمير عائدا على المنافقين المعبر عنهم بقوله: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٤) فالمعنى: ولو كنت فظا لأعلنوا الكفر وتفرقوا عنك، وليس المراد أنك لنت لهم في وقعة أحد خاصة، لأن قوله بعده: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ إلخ ينافي ذلك المحمل، والفظ: السيء الخلق، الجافي الطبع.

وقال في صفة محمد – عليه السلام –: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فكمال رحمة الله في حق محمد– ﷺ – أنه عرفه مفاسد الفظاظة.

والغليظ القلب: القاسية، إذ الغلظة مجاز عن القسوة وقلة التسامح، كما كان اللين مجازا في عكس ذلك، والانفضاض: التفرق، ومن حولك أي من جهتك وإزائك، يقال: حوله وحوليه وحواليه وحواله وحياله وبحياله، والضمير للذين حول رسول الله، أي الذين دخلوا في الدين لأنهم لا يطيقون الشدة، والكلام تمثيل: شبهت هيئة النفور منه وكراهية الدخول في دينه بالانفضاض من حوله أي الفرار عنه متفرقين، وهو يؤذن بأنهم حوله متبعون له.

والفرق بين الفظ وبين غليظ القلب: أن الفظ الذي يكون سيء الخلق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤذي أحدا ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم، فظهر الفرق من هذا الوجه.

ولما كان المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيما كريما، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيئاتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة اللين والرفق إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) وقال للمؤمنين في إقامة حد الزنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ (النور: ٢).

وهاهنا دقيقة أخرى: وهي أنه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمره بالغلظة في قوله: ﴿ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فههنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤) وقوله: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الفتح: ٢٩) وتحقيق القول فيه أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم، فلهذا السر مدح الله الوسط فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ (البقرة: ١٤٣) ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ فيما يتعلق بحقك ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ فيما يتعلق بحق الله تعالى.

وظاهر الأمر للوجوب، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ يدل على التعقيب، فهذا يدل على أنه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، وهذا يدل على كمال الرحمة الإلهية حيث عفا هو عنهم، ثم أوجب على رسوله أن يعفو في الحال عنهم.

وقوله: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ فيه إيجاب للعفو على الرسول – عليه السلام –، ولما آل الأمر إلى الأمة لم يوجبه عليهم، بل ندبهم إليه فقال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) ليعلم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والتفريع في قوله: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ على قوله: ﴿ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾ الآية، لأن جميع الأفعال المأمور بها مناسب للين، فأما العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأما عطف وشاورهم فلأن الخروج إلى أحد كان عن تشاور معهم وإشارتهم، ويشمل هذا الضمير جميع الذين لأن لهم – ﷺ – وهم أصحابه الذين حوله سواء من صدر منهم أمر يوم أحد وغيرهم.

ثم قال: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: فتجاوز عنهم، ولا تعاقبهم بما يكون منهم من الزلة والذنب ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ من ذلك الذنب ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ يقول: إذا أردت أن

تعمل عملاً فاعمل بتدبيرهم ومشاورتهم، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي لا تتوكل على المشورة، ولكن توكل على الله بعد المشورة لا على الأصحاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ الذين يتوكلون على الله.

وحقيقة التوكل شهود التقدير، واستراحة القلوب عن كد التدبير.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ يذيقهم برد الكفاية ليزول عنهم كل لغب ونصب، وإنه يعامل كلا بما يستوجبه فقوم يغنيهم- عند توكلهم- بعطائه، وآخرون يكفيهم - عند توكلهم- بلقائه، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه، ويقفون معه به له - على تلوينات قدره وقضائه[1].

فرسول الله - ﷺ - رحمة للمؤمنين؛ لما استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الهلاك إلى النجاة، يشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦١) أخبر أنهم يؤذون النبي، ولم يبين بما كانوا يؤذونه، فيحتمل: يؤذون النبي بتكذيبهم إياه، وتركهم الإجابة له والطاعة فيما يدعوهم إليه.

ويحتمل: يؤذونه بكلمات يسمعونه، وطعن يطعنونه، ويعيبون عليه ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾.

(١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٢٦٠)، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي (٩/ ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٤/ ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦)، لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٩٠).

قيل: الأذن هو الذي يقبل العذر ممن اعتذر إليه، ويسمع من كل أحد يعتذر إليه ويقبل، وكذلك كان – ﷺ – يقبل العذر ممن اعتذر إليه ويسمع، منه سواء كان له عذر أو لا عذر له؛ لكرمه وشرفه، وحسن خلقه، فظن أُولَئِكَ لما رأوه أنه كان يعاملهم معاملة أهل الكرم والشرف والمجد أنه إنما يعاملهم هذه المعاملة لسلامة قلبه، وصغر همته، وقصور يده، وهم كانوا أهل كبر وأنفة، قالوا: هو أذن، نقول ما شئنا ثم نتخلف ونعتذر إليه فيصدقنا، ويقبل عذرنا؛ قال الله– تعالى–: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي: الذي يقبل العذر ويسمع خير لكم من الذي لا يقبل ولا يسمع، فكيف تؤذونه، وتطعنون عليه وتعيبونه، ولا تصدقونه ولا تؤمنون به؟ يخبر عن سفههم.

وقيل: الأذن: الذي من قال له شيئا، أو حدثه حديثا، صدقه واستمع منه، وكذلك كان رسول الله– ﷺ– يصدق كل من قال له شيئًا أو حدثه حديثًا، واستمع منه؛ لكرمه، وشرفه، ومجده، وحسن خلقه، لا لما ظن أُولَئِكَ.

وقيل: يقولون: هو أذن، أي: يسر في نفسه ويكتم، ولا يكافئ من آذاه، ولا يجازيه؛ قال الله: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾، أي: يصدق بالله بما ينزل عليه من آياته.

وجملة: ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ تمهيد لقوله بعده ويؤمن للمؤمنين إذ هو المقصود من الجواب لتمحضه للخير وبعده عن الشر بأنه يؤمن بالله فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحد إلا ببينة، فالناس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه لأنه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنة والتهمة.

والإيمان للمؤمنين تصديقهم في ما يخبرونه، يقال: آمن لفلان بمعنى صدقه، ولذلك عدي باللام دون الباء كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:١٧) فتصديقه إياهم لأنهم صادقون لا يكذبون، لأن الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب، فكما أن الرسول لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين، فقوله: ويؤمن للمؤمنين ثناء عليه بذلك يتضمن الأمر به، فهو ضد قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (الحجرات:٦).

﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: يصدقهم فيما بينهم من شهاداتهم، وأيمانهم على حقوقهم، وفروجهم، وأموالهم.

ويحتمل قوله: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ ويصدقه بما يخبره من سرّ المنافقين، وما استكتموه منه من الكيد له، والمكر به، ويؤمن للمؤمنين بما يخبرونه من قبل أُولَئِكَ المنافقين من الطعن فيه، والعيب عليه، والإيمان بآخر هو التصديق بجميع ما فيه، والإيمان له من خبره وحديثه.

وقوله: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيما يشهدون في الآخرة له بالتبليغ إليهم؛ كقوله؛ ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أو أن يكون قوله: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: يؤمن بالمؤمنين فيما بينهم بالأخوة في الدين؛ كقوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

وقوله– عز وجل –: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ كان – ﷺ – رحمة للمؤمنين؛ لما استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الهلاك إلى النجاة، يشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا.

وعطف جملة ورحمة على جملتي يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين لأن كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم، ولو آخذهم بحالهم دون مهل لكان من سبق السيف العذل، فالمراد من الإيمان في قوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان بالفعل، لا التظاهر بالإيمان، كما فسر به المفسرون، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون.

وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير، بالترغيب والترهيب، فرغبهم في الإيمان ليكفروا عن سيئاتهم الفارطة.

ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيء بوصف رسول الله إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم، فهو من تعليق الحكم بالمشتق المؤذن بالعلية.

وفي الموصول إيماء إلى أن علة العذاب هي الإيذاء، فالعلة مركبة[1].

فرحمته – ﷺ – لا تقف عند الجانب الشخصي من قول وسلوك فقط، بل قرنها الجانب الدعوي المتمثل في حرصه – ﷺ – لإنجاء قومه من النار والفوز بالجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠/ ٢٤٣-٢٤٤)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٥/ ٤١١-٤١٢).

لما أمر الله – تعالى– رسوله – عليه الصلاة والسلام – أن يبلغ في هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، وأيضا فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، عرفتم أنه رسول حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن ونهاية الكمال.

فختم الله – سبحانه – هذه السورة بما يهون، عنده بعض ما اشتملت عليه، من التكاليف الشاقة فقال موبخاً: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ ﴾ يا معشر العرب، والخطاب لهم عند جمهور المفسرين، لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله – ﷺ – فيها قرابة، وهذا من المجاز والاستعارة، لأن النبي – ﷺ – كان فيهم ولم يجئ من موضع آخر، ولكن معناه: ظهر فيكم رسول الله – ﷺ –، وقيل الخطاب لجميع العالم أي ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أرسله الله إليكم له شأن عظيم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم في كونه عربيا قرشيا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه، وأنه من ولد إسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك، قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾: صفة لرسول، أي: من صميم العرب، قرأ بفتح الفاء ابن محيصن طريق ابن أبي يزيد، ومحبوب عن أبي عمرو، وهو الاختيار، يعني: من أكرمكم وبه قرأت عائشة وفاطمة رضي الله عنها، الباقون بضم الفاء[1]، أي: من أشرفكم، من النفاسة.

(١) الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، ليوسف بن علي بن محمد أبوالقاسم الهذلي: ص٥٦٥ – ط: مؤسسة سما.

فأنفس أفعل تفضيل من النفاسة والمراد الشرف أي أشرفكم وأفضلكم.

وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما اللام و(قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله، ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء، ولأن في هذا التأكيد تسجيلا عليهم مرادا به الإيماء إلى اقتراب الرحيل، لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه، وهو تسجيل منه على المؤمنين، وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين، على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة: ١٥) وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (النساء: ١٧٤) فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار.

والمجيء: مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين، شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر، وهو استعمال شائع في القرآن.

والأنفس: جمع نفس، وهي الذات، ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير، أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق.

وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناوأته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (الزخرف: ٤٤) أي يبقى منه لكم ذكر حسن.

فقد وصف الله تعالى الرسول في هذه الآية بخمسة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي أنه بشر مثلكم كقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ (يونس: ٢) وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (فصلت: ٦) والمقصود أنه لو كان من جنس الملائكة لصعب الأمر بسببه على الناس، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم.

والصفة الثانية: قوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾، قيل: شديد عليه ما أعنتكم، أي: ما ضيق عليكم وضركم، أي: شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وقال بعضهم: العنت: الإثم، أي: شديد عليه ما أثمتم.. وهو يحتمل كل إثم: الكفر وغيره.

و(ما) في قوله: ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ في موضع رفع، والمعنى: عزيز عليه عنتكم، أي يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ والحرص يمتنع أن يكون متعلقا بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، حريص على من لم يسلم أن يسلم، وحريص عليكم بالهدى والرشد.

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه أو بعذاب الآخرة بالنار أو بمجموعها والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم، والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع (ما) المصدرية السابكة للمصدر نكتة، وهي إفادة أنه قد عز عليه عنتهم الحاصل في الزمن الذي مضى، وذلك بما لقوه من قتل قومهم، ومن الأسر في الغزوات، ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن، فلو أتي بالمصدر لم يكن مشيرا إلى عنت معين ولا إلى عنت وقع لأن المصدر لا زمان له بل كان محتملا أن يعز عليه بأن يجنبهم إياه، ولكن مجيء المصدر منسبكا من الفعل الماضي يجعله مصدرا مقيدا بالحصول في الماضي، ألا ترى أنك تقدره هكذا: عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيها على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلوائهم ويرعوون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم، ﴿ حَرِيصٌ ﴾ شحيح ﴿ عَلَيْكُم ﴾ بأن تدخلوا النار أو حريص على إيمانكم وهدايتكم والأول أولى.

والصفة الرابعة والخامسة: قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: رحمة الدين والإسلام، فهو رفيق بجميع المؤمنين، رحيم بهم، فسماه الله رؤوفا رحيما لم يجمع لأحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه إلا النبي – ﷺ –، والرؤوف أخص من الرحيم، وإنما قدم عليه رعاية للفواصل.

وقال سبحانه: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يقل سبحانه: رؤوف رحيم بالمؤمنين، لأن قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة له إلا بالمؤمنين. فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول: إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن

ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين. وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل على ذلك النسق.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد – ﷺ – والتنويه بصفاته الجامعة للكمال، ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم، وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله – ﷺ – بقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن.

فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل.

وذكر هذا في صفة الرسول – عليه السلام – يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة، ومن آثار ذلك شفاعته للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب، ثم إن ذلك يومىء إلى أن شرعه جاء مناسبا لخلقه فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ (الحج: ٧٨).

(الرؤوف): الشديد الرأفة. والرحيم: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، والرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضر بالمرؤوف به. يقال: ﴿ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾، والرحمة: رقة تقتضي

الإحسان للمرحوم، بينهما عموم وخصوص مطلق، وتقديم المتعلق في قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته، ورحمته بهم، وأما رحمته بهم. وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم، فالجمع بين رءوف ورحيم في الآية يفيد توكيد مدلول أحدهما بمدلول الآخر بالمساواة أو بالزيادة، ولإفادة أنه تعالى يرحم الرحمة القوية لمستحقها ويرحم مطلق الرحمة من دون ذلك(١).

والرسول – ﷺ- اتحد بالرحمة وانحصر فيها، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة للعالمين وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقوله – عز وجل -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ جائز أن يكون كل رسل الله رحمة من الله للعالمين، وكذلك كل كتب الله رحمة للعالمين على ما ذكر في عيسى: ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٢١).

وجائز أن يكون لرسول الله- صلوات الله وسلامه عليه– خاصة، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمدا ﷺ رحمة للعالمين، أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟

(١) بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ١٠١-١٠٠)، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي (١٦/ ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١١/ ٧١، ٧٢، ٧٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٥/٤٣١، ٤٣٢)، تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٥/ ٥١٨)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٦/١٤١).

﴿ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (إبراهيم: ٢٨- ٢٩) وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٤) وعن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين، قال «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»(١).

وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله – ﷺ-: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..... الحديث»(٢).

فأقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لسيدنا محمد – ﷺ – وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم، وإثبات رسالة سيدنا محمد-ﷺ-، وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وذكروا إجمالا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل، وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل.

وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم، من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكما، وعلما، وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة سيدنا محمد – ﷺ –، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين، فهذه الجملة عطف على جملة: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١) ختاما لمناقب الأنبياء، وما بينهما اعتراض واستطراد.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: البر والصلة والآداب – باب: النهي عن لعن الدواب، حديث رقم ٢٠٠٧، (٤/٢٠٠٦) ط: دار الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب: البر والصلة – باب: ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم ١٩٢٤، (٤/٣٢٣) ط: دار الحديث.

ولهذه الجملة اتصال بآية: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣).

ووزانها في وصف شريعة سيدنا محمد – ﷺ – وزان آية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (الأنبياء: ٤٨) وآية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ (الأنبياء: ٥١) والآيات التي بعدهما في وصف ما أوتيه الرسل السابقون.

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به، ذكر فيه الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم، إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم، وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين، وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم، وانتصاب رحمة على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة، ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة.

ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق

الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته. المظهر الأول: فقد زين الله تعالى نبيه – ﷺ – بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة فقد فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخلقه.

ولهذا خص الله محمدا – ﷺ – في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) أي برحمة جبلك عليها وفطرك بها فكنت لهم لينا.

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى للعالمين متعلق بقوله رحمة.

والتعريف في للعالمين لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم، والعالمين: هو الجن والإنس؛ لأنه بعث إليهم، ثم الرحمة فيه يحتمل وجوها:

أحدها: تأخير العذاب عنهم.

والثاني: أنه رحمة، حتى إذا اتبعوه يكون به نجاتهم، وبه عزهم في الدنيا والآخرة.

والثالث: شفاعته لأهل الكبائر في الآخرة، ونحو ذلك.

أو العالم الصنف من أصناف ذوي العلم، أي الإنسان، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة.

وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها[١]، فرحمته – ﷺ – عامة للإنس من أطفال، ونساء، وعبيد، مؤمنهم وكافرهم، وللجن، والحيوان، والطير وحتى الجماد فمن رحمته – ﷺ– بالحيوان والطير في هديه النبوي أنه لا يجوز تعذيبها ولا تجويعها ولا اتخاذها هدفا يرمي إليه، وقد تعددت صور هذه الرحمة فمنها: نهيه – ﷺ – أن يحول أحد بين حيوان أو طير وبين ولده، فعن عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله– ﷺ – في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة، معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (تعرش) فجاء النبي – ﷺ – فقال: (من فجع هذه بولدها؟، ردوا ولدها إليها، ورأي قرية نمل قد حرقناها، فقال: من حرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)[٢]، وأيضا نهيه – ﷺ – عن اتخاذ شيء فيه الروح غرضا، يتعلم فيه الرمي، فعن سعيد ابن جبير– رضي الله عنه – قال: خرجت مع ابن عمر – رضي الله عنه – من منزله، فمررنا بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر من فعل هذا؟ لعن الله من

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٦٤: ١٦٨)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٣٨٣/٧- ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبوداود في سننه: كتاب: الجهاد – باب: في كراهية حرق العدو بالنار، حديث رقم ٢٦٧٥، (٤٠٧/٢) ط: دار الفكر.

فعل هذا، إن رسول الله – ﷺ – قال: (لعن الله من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا)[١]، وكان – ﷺ – رحيما بالأطفال يقبلهم ويداعبهم ومن ذلك ما رواه أبو سلمة أن أبا هريرة قال: (قبل رسول الله – ﷺ – الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحد، فنظر إليه رسول الله – ﷺ – ثم قال من لا يرحم لا يرحم)[٢]، ومن رحمته – ﷺ – أنه إذا دخل في الصلاة فسمع بكاء صبي أسرع في آدائها وخففها رحمة به وبأمه فعن أبي قتادة عن النبي – ﷺ – قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق علي أمه)[٣].

وشملت رحمته الجماد فعن ابن عباس – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – كان يخطب إلي جذع قبل ان يتخذ المنبر، فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حن عليه، فأتاه فاحتضنه فسكت، قال: ولولم احتضنه لحن إلي يوم القيامة[٤].

(١) أخرجه أحمد في مسنده: حديث رقم ٦٢٥٩ (٥/ ٤٨٥) ط: دار الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الأدب – باب: رحمة الولد وتقبيله – حديث رقم ٦٠٠١، (٢١/٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الآذان – باب: من أخف الصلاة عتد بكاء الصبي – حديث رقم ٧١٥، (٦٣٧/١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: حديث رقم ٢٢٣٦ – (٣/ ٣٠) – ط: دار الحديث.

المبحث الثالث

آثار الرحمة الموصوف بها النبي – ﷺ –

في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية

وقد اشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من صبر، وعفو وصفح في ضوء القرآن الكريم
- المطلب الثاني: دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من، خفض جناح، أمر بالعرف، وإعراض عن الجاهلين، ودفع السيئة بالحسنة، في ضوء القرآن الكريم.

المطلب الأول

دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من صبر، وعفو وصفح، في ضوء القرآن الكريم:

أولاً: الصبر:

فمن آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ–، صبره علي استهزاء قومه وتكذيبًهم له، وذلك في قوله – عز وجل –: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص:١٦، ١٧).

فقوله: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: أي: كتابنا؛ وذلك أن النبي– ﷺ – كان يوعدهم أنهم يؤتون كتابهم بشمالهم فيه أعمالهم التي عملوها في الدنيا في الآخرة،

فعند ذلك قالوا له: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾، أي: كتابنا الذي توعدنا أنه يعطى بشمالنا، قالوا ذلك استهزاء به وتكذيبا له.

وقال بعضهم: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أي: نصيبنا وحظنا من العذاب الذي توعدنا به وتحذرنا يوم الحساب قبل يوم الحساب، قالوا ذلك استهزاء به وتكذيباً له؛ ولذلك قال له على أثر ذلك: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يصبره ويعزيه على ما يقولون؛ ليصبر على ذلك، والله أعلم.

وجائز أن يكون قوله – عز وجل –: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ ليس على سؤال العذاب والكتاب الذي حمله عامة أهل التأويل عليه، ولكنه سؤال السعة والنصيب في الدنيا، ويكون ذلك في قوم لا يؤمنون بالآخرة سألوا ما وعدوا من النعيم في الآخرة والسعة في الدنيا، وذلك أشبه لأنهم سألوا ربهم أن يعجل ذلك لهم، فلو كان على ما يحمله أهل التأويل من سؤال العذاب والكتاب على الاستهزاء بالرسول والتكذيب له، لسألوا الرسول ذلك، ولم يسألوا ربهم ذلك؛ فدل ذلك على أنه أشبه وأقرب، والله أعلم.

ويكون قوله – عز وجل –:﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: على ما تقدم من قولهم: إنه ساحر وإنه كذاب، وإنه اختلق هذا القرآن من ذات نفسه ونحوه، ويؤيد ذلك قول سعيد بن جبير قال: ذكرت لهم الجنة فاشتهوا ما فيها، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أي: نصيبنا من الجنة، أي فقد وعدت بالنصر، والظفر، والملك والتأييد، كما أوتي داوود– عليه السلام – مما سارت به الأمثال، ولذا قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ أي: القوة والاجتهاد في أداء الأمانة والتشدد في القيام بالدعوة، ومجانبة اظهار الضعف والوهن ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي: رجاع إلى الله تعالى بالإنابة، والخشية، والعبادة، والصيام[1].

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٨/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٨/٢٤٥).

وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ–، صبره علي أذي قومه بقولهم ساحر، وشاعر، ومجنون وذلك في قوله – عز وجل –: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩) أي: فاصبر على ما يقولون فيك: إنك ساحر، وشاعر، ومجنون، ونحوه، فأمره بالصبر على ذلك، وألا يدعو عليهم بالهلاك.

ويحتمل: فاصبر على ما يقولون في الله من معاني الخلق، فلا تحاربهم، ولا تقاتلهم، ولا تدعو عليهم بالهلاك، ولكن اصبر؛ فإن الله تعالى ينتقم منهم لك.

وإنما أمره بالصبر؛ لأن رسول الله – ﷺ – كان سريع الغضب لله تعالى فيما عاين من المناكير وسمع، وكذلك جميع الأنبياء – عليهم السلام – لذلك أمره بالصبر فيما يقولون في الله أو فيه، أي: هون عليك ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منهم بالصبر.

وقوله – عز وجل –: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾، قيل: بحمد ربك، أي: بالثناء على ربك؛ أي: أثن عليه بما هو أهله، وما يليق به، ونزهه عما لا يليق بجانبه، متلبسا بحمده وقت الفجر ووقت العصر، وقيل المراد صلاة الفجر، وصلاة العصر، وقيل الصلوات الخمس، وقيل صل ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والاول أولي[1].

وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد– ﷺ–، صبره علي أذي قومه بقولهم ساحر، وشاعر، ومجنون وذلك في قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/ ٣٦٧، ٣٦٨)، وفتح البيان لصديق حسن خان القنوجي (١٣/ ١٨٢).

(الطور:٤٨).

دل هذا الصبر أن النبي – ﷺ – قد كلف أمرا شديدا شاقا عليه حتى قال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾؛ إذ الأمر بالصبر لا يكون إلا في أمور شاقة شديدة؛ ولذلك قال له:﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، أمره بالصبر على ما كلفه، كما صبر إخوانه على ما لحقهم من الأمور الشاقة، وما قال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ (النحل: ١٢٧)، أخبر أنه لو صبر إنما يصبر بتوفيق الله إياه، أو فيه: أنه إذا صبر يكون صبره لله تعالى؛ حتى يسهل عليه احتمال ذلك، والله أعلم.

ثم قوله – عز وجل –: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾، يحتمل وجوها:

أحدها: ما أمر من تبليغ الرسالة إلى الفراعنة الذين كانت همتهم القتل لمن خالفهم، فذلك أمر شديد؛ فأمره بالصبر على ذلك، والتبليغ إلى أُولَئِكَ.

والثاني: أمره بالصبر على أذاهم واستهزائهم به، وترك المكافأة لهم.

ويحتمل أن يكون الأمر بالصبر على الأمور التي كانت عليه في خالص نهيه من احتمال غصة التكذيب، وحزنه على تركهم التوحيد والإيمان، وإنما ذلك كله حكم الله تعالى وقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ أي بحيث نراك ونكاؤك وجمع العين لأن الضمير بلفظ الجماعة ألا ترى الى قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ (طه: ٣٩) وقوله: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ للصلاة وهو ما يقال بعد التكبير سبحانك اللهم وبحمدك أو من أي مكان قمت أو من منامك[١].

وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ–، صبره علي أذي قومه بقولهم ساحر،

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/ ٤١٣)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٣/ ٣٨٨).

وشاعر، ومجنون وأمره بالصبر والهجر الجميل وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠) أي: اصبر على تكذيبهم إياك؛ ألا ترى إلى قوله في سياق الآية: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ (المزمل:١١)، فثبت أنه دعي إلى الصبر على التكذيب.

وجائز أن يكون منصرفا إلى هذا وإلى غيره؛ لأنهم كانوا لا يقتصرون على تكذيبه، بل كانوا ينسبونه إلى الكذب مرة، وإلى السحر ثانيا، وإلى الجنون ثالثا، وإلى أنه يتيم رابعا؛ فكانوا يؤذونه بأنواع الأذى؛ فجائز أن يكون قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ منصرفا إلى كل ذلك، اي اصبر على ما يقولون في من الصاحبة والولد، وفيك من الساحر والشاعر، والأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك، ثم الأمر بالصبر يقع بخصال ثلاث: ألا تجازهم على تكذيبهم إياك تكذيبك إياهم، أو لا تجزع عليهم، وفي الجزع بعض التسلي والتشفي، ولا تدع عليهم بالهلاك والتبار بل اصبر لذلك.

ولكن كيف كان يشتد عليه تكذيبهم إياه حتى كاد يتحزن لذلك، والذين نسبوه إلى الكذب كانوا من أعدائه، وليس يستثقل التكذيب من العدو، ولا يستكثر منه؛ لأنه بما يعاديه يعتقد أن يسيء إليه بجميع ما يمكنه وسعه، وإنما يستثقل التكذيب من أهل الصفوة والمودة؛ فكيف استثقله؟ وكيف بلغ به التكذيب مبلغا يحزن به؛ حتى يدعى إلى الصبر بقوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣)، وبقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (المزمل:١٠)؟

والجواب عن هذا أن الكذب والجهل مما يستثقلهما العقل والطبع جميعا، وكذلك التكذيب والتجهيل، أمر ثقيل على الطبع والعقل جميعا، حتى إن الكذاب إذا نسب إلى الكذب، اشتد عليه ذلك، ولم يتحامل، وكذلك الجهول إذا عرف بالجهل، ثقل ذلك

عليه؛ فإذا كان التكذيب مستقبحا في عقول الخلق وطبائعهم، وإن كانت طبائعهم مشوبة بالآفات وفي عقولهم نقص، فرسول الله -ﷺ- مع صفاء عقله، وسلامة طبعه عن الآفات أحق أن يثقل عليه؛ فيحزن لذلك.

ثم ما من إنسان ينسب إلى الكذب فيما يحدث عن نفسه أو عمن سواه من الخلائق ممن علت رتبتهم أو انحطت إلا وهو يجد لذلك ثقلاً، فكيف إذا أخبر عن الله تعالى وكذب فيه، أليس هذا أحق أن يثقل على القلب ويتحزن له؟!

ويجوز أن يكون حمله على الحزن شدة إشفاقه على المكذبين؛ لأن تكذيبهم يفضي بهم إلى العطب والهلاك؛ فأشفق عليهم باشتغالهم بما به هلاكهم، وحزن لذلك.

أو يكون حزنه غضبا لله تعالى؛ إذ الرسل كانوا يغضبون لله تعالى، ويشتدون على أعدائه.

والجواب عن قوله: إن المكذبين كانوا من أعدائه، فكيف اشتد عليه تكذيبهم، وذلك أمر غير مستشنع من الأعداء؟ فنقول: إن رسول الله - ﷺ - كان يعاملهم معاملة الولي مع وليه الصفي، ولم يكن يعاملهم بما يعامل به الأعداء؛ لأنه كان يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم وشرفهم في أمر دنياهم وآخرتهم، ومن عامل آخر معاملة أقرب الأصفياء معه، كان الحق عليهم أن يجازوه بالإحسان؛ فإذا تركوا ذلك، وقابلوه بالتكذيب، اشتد عليه، وحزن لذلك.

وقوله – عز وجل -: ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ أي: اهجرهم وقت سبهم، ونسبتهم إياك إلى ما لا يليق بك، ولا تعبأ بهم، ولا تكترث إليهم، وإلى ما يتقولون عليك؛ لأن ذلك بعض ما يزجر المتقول والساب عما هو فيه، وهو كقوله – عز وجل -: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ .

ويحتمل أن يكون تأويله: أن انقطع عنهم انقطاعا جميلا، والانقطاع الجميل: ألا يترك شفقته عليهم، ولا يدعو عليهم بالهلاك، ولا يمتنع عن دعائهم إلى ما فيه رشدهم وصلاحهم؛ ولذلك قال في وقت أذاهم إياه: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ويحتمل أن يكون هجره إياهم هجرا جميلا هو ألا يكافئهم بالسيئة السيئة، بل يدفع السيئة بالحسنة؛ كقوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾؛ إذ ذاك أدعى للخلق إلى إجابة من يفعل ذلك بهم عند المعاملة، والله أعلم.

ثم من الناس من يقول بأن هذه الآية نسختها آية السيف.

ومنهم من قال بأنها لم تنسخ، وصرفوا تأويل الآية إلى جهة لا يعمل عليها النسخ، وذلك أن في قوله: ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ منع المكافاة لأجل ما آذوه، ولم يفرض عليه القتال؛ ليكافئهم بأذاهم، وينتقم منهم بذلك؛ بل رجع قتاله إلى نصرة الدين؛ ولتكون كلمة الله تعالى هي العليا؛ لذلك لم يكن في آية السيف ما يوجب نسخ هذا، ولا نسخ العمل بقوله: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ .

الثاني: أنه ليس في قتالهم انتقام منهم، بل فيه ما يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، واذا آمنوا بذلك نجوا من العقاب، وفازوا بعظيم الثواب؛ فيصير القتال رحمة لهم لا عقوبة.

ووجه جعله رحمة: هو أنهم إذا رأوا غلبة المسلمين عليهم مع قلة عددهم والضعف الذي حل بأبدانهم؛ لاشتغالهم بعبادتهم ربهم، وكثرة عدد المشركين مع قوة أبدانهم – أيقنوا أنهم لم ينالوا الغلبة بالحيل والأسباب؛ بل الله تعالى هو الذي قواهم عليهم، وقام بنصرهم؛ فيتقرر عندهم كون أهل الإسلام على الحق، وإذا أيقنوا بالحق التزموه فيحرزون به جزيل الثواب، وكريم المآب؛ فصار القتال رحمة لهم، لا أن يكون عقوبة عليهم؛ لسوء صنيعهم،

وإذا كان كذلك، بقي العمل بقوله- عز وجل-: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ ثابتا باقيا، أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافآتهم وتجانبهم وتداريهم وكل أمرهم إلى الله فالله يكفيكهم، فالهجر الجميل الذي لا جزع فيه(١).

ثانيًا: العفو والصفح:

فمن آثار رحمة سيدنا محمد - ﷺ-، عفوه وصفحه، عن غير المؤمنين، فقد امر الله تعالي نبيه بالعفو والصفح عن غير المؤمنين، وبذلك يحسن والله -عزوجل- يحب أهل الإحسان وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣).

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ الباء للسببية وما زائدة أي بسبب نقضهم، قال ابن عباس: هو ميثاق أخذه الله على أهل التوبة فنقضوه ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية، وحقيقة اللعن في اللغة الطرد والإبعاد فاستعماله بالمعنيين الآخرين مجاز باستعماله في لازم معناه وهو الحقارة بما ذكر، لكنه لا قرينة في الكلام عليه.

﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ أي صلبة لا تعي خيرا ولا تعقله وغليظة يابسة لا تلين ولا رحمة فيها لأن القسوة خلاف الرقة، وقيل: المعنى أن قلوبهم ليست خالصة الإيمان بل مشوبة بالكفر والنفاق.

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٠/ ٢٧٧: ٢٨١)، وفتح البيان في مقاصد القرآن (١٤/ ٣٨٨).

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ ﴾ يعني بالتغيير والتبديل، وسوء التأويل، الذي في التوراة من نعت محمد – ﷺ – وغيره ﴿ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم أو حالية أي يبدلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله، وقيل يزيلونه ويميلونه، قال ابن عباس: يعني حدود الله.

﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي الكتاب وما أمروا به من الإيمان بمحمد– ﷺ– وبيان نعته وصفته.

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ الخطاب للنبي – ﷺ – والخائنة الخيانة، وقيل التقدير فرقة خائنة، وقد يقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة، وقيل خائنة معصية، وقال قتادة: خائنة كذب وفجور.

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبدالله بن سلام وأصحابه ولم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح فقال: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك. وقوله: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ فيها قولان: أحدهما: أن حكمها ثابت في الصفح والعفو إذا رآه. والثاني: أنه منسوخ، وفى الذي نسخه قولان: أحدهما: قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] وهذا قول قتادة. والثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (الأنفال:٥٨).

وقيل هو خاص بالعاهدين وأنها غير منسوخة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إذا عفوت عنهم فإنك تحسن وهو يحب أهل الإحسان(١).

العفو والصفح وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، في العفو الصفح، عفوه وصفحه عن قومه، فقد امر الله سبحانه رسوله – ﷺ – بأن يصفح عن قومه صفحا جميلا، بأن يتجاوز عنهم، ولا يعجل عليهم بالانتقام، وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ متلبسة ﴿بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح، ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقيل المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن إلى من يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله – ﷺ – بأن يصفح عن قومه فقال ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا، وقيل فأعرض عنهم إعراضا جميلا ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم.

(١) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٢٠، ٢١)، وفتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٣/٣٧٥، ٣٧٦)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٦٦، ٦٧).

قال علي: الصفح الجميل الرضا بغير عتاب؛ وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال: وعن عكرمة مثله، يعني هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد، لأن الله أمر نبيه أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والأمر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم(١).

الصفح وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، في الصفح، صفحه عن قومه، فقد أمر الله سبحانه رسوله –ﷺ – بأن يصفح عن قومه، وذلك بالإعراض عنهم وقول السلام لهم أو عليهم فهو سلام متاركة لا تحية وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزخرف: الآيتان ٨٨، ٨٩).

﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ أي: قول الرسول – ﷺ – شاكيا إلي ربه – تبارك وتعالي – قومه الذين كذبوه وما يتلقى منهم، ونصبه للعطف على سرهم، أو على محل الساعة، أو لإضمار فعله أي وقال قيله، وجره عاصم وحمزة عطفا على الساعة، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أو معطوف على علم الساعة بتقدير مضاف، وقيل هو قسم منصوب بحذف الجار أو مجرور بإضماره، أو مرفوع بتقدير وقيله يا رب قسمي، وإن هؤلاء جوابه، وقوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي: الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم بدعائهم إليك ﴿ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي: بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر، ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيسا عن إيمانهم، ﴿ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ ﴾ متاركة، لا تحية، ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ تسلية للرسول وتهديد لهم(٢).

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٥/ ٩٨)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٨ / ٤٠٤).

المطلب الثاني

دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من: خفض الجناح للمؤمنين، والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين، و دفع السيئة بالحسنة، في ضوء القرآن الكريم

أولاً: حفض الجناح:

من آثار رحمة سيدنا محمد- ﷺ -، خفض جناحه للمؤمنين، فقد أمر الله سبحانه رسوله- ﷺ – بأن يخفض جناحه للمؤمنين، وذلك بالتواضع لهم والرفق بهم، واللين في المعاملة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحجر: الآيات ٨٨، ٨٩).

قوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب، ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفار، وهو استئناف بياني لما يثيره المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (سورة الحجر: ٨٥)، ومن تساؤل يجيش في النفس عن الإملاء للمكذبين في النعمة والترف مع ما رمقوا به من الغضب والوعيد فكانت جملة لا تمدن عينيك بيانا لما يختلج في نفس السامع من ذلك، ولكونها بهذه المثابة فصلت عن التي قبلها فصل البيان عن المبين، ولولا أن الجملة التي وقعت قبلها كانت بمنزلة التمهيد لها والإجمال لمضمونها لعطفت هذه الجملة لأنها تكون حينئذ مجرد نهي لا اتصال له بما قبله، كما عطفت نظيرتها في قوله تعالى في سورة طه (١٢٠-١٣١): ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلما

فصلت الجملة هنا فهم أن الجملة التي قبلها مقصودة التمهيد بهذه الجملة ولو عطفت هذه لما فهم هذا المعنى البديع من النظم.

والمد: أصله الزيادة، واستعير المد هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به، لأن المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات، أي فإن ما أوتيته أعظم من ذلك، فلو كانوا بمحل العناية لاتبعوا ما آتيناك، ولكنهم رضوا بالمتاع العاجل فليسوا ممن يعجب حالهم والأزواج هنا يحتمل أن يكون على معناه المشهور، أي الكفار ونسائهم، ووجه تخصيصهم بالذكر أن حالتهم أتم أحوال التمتع لاستكمالها جميع اللذات والأنس.

ويحتمل أن يراد به المجاز عن الأصناف، فوجه ذكره في الآية أن التمتع الذي تمتد إلى مثله العين ليس ثابتا لجميع الكفار بل هو شأن كبرائهم، أي فإن فيهم من هم في حال خصاصة فاعتبر بهم كيف جمع لهم الكفر وشظف العيش.

ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم أنفسهم وإن لم يحصل لهم في قلبه قدر ووزن فقال: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: على أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، والنهي عن الحزن عليهم شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تحزن الرسول – عليه الصلاة والسلام – وتؤسفه، فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (سورة الكهف: ٦)، ومنه حلول العذاب بهم مثل ما حل بهم يوم بدر فإنهم سادة أهل مكة، فلعل رسول الله – ﷺ – أن يتحسر على إصرارهم حتى حل بهم ما حل من العذاب،

ففي هذا النهي كناية عن قلة الاكتراث بهم وعن توعدهم بأن سيحل بهم ما يثير الحزن لهم، وكناية عن رحمة الرسول – ﷺ – بالناس.

ولما كان هذا النهي يتضمن شدة قلب وغلظة لا جرم اعترضه بالأمر بالرفق للمؤمنين بقوله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهو اعتراض مراد منه الاحتراس، فكما أمره بالتكبر على الأغنياء والترفع عنهم إذا كانوا كفارا أمره بالتواضع للفقراء والرفق بهم إذا كانوا مؤمنين وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو، ففيه استعارة مكنية، وقد شاعت حتى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة. وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدة.

وفي هذه الآية تمهيد لما يجيء بعدها من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (سورة الحجر: ٩٤)... وإنما قال في سورة الشعراء بزيادة ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ (الآية: ٢١٥) لأنه قال قبله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (الآية: ٢١٤) فلو لم يذكر هذه الزيادة لكان الظاهر أن اللام للعهد فصار الأمر بخفض الجناح مختصا بالأقربين من عشيرته فزيد ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥) ليعلم أن هذا التشريف شامل لجميع متبعيه من الأمة، ولما بعثه على الرفق بأهل الإيمان أمره بالإنذار لكل المكلفين فقال: ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي: أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، وجملة ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ عطف على جملة ولا تحزن عليهم فالمقول لهم هذا القول هم المتحدث عنهم بالضمائر السابقة في قوله تعالى: منهم وقوله: عليهم. فالتقدير: وقل لهم لأن هذا القول مراد منه المتاركة، أي ما علي إلا إنذاركم، والقرينة هي ذكر النذارة دون البشارة لأن النذارة تناسب المكذبين إذ النذارة هي الإعلام بحدث فيه ضر.

والنذير: فعيل بمعنى مفعل مثل الحكيم بمعنى المحكم، وضرب وجيع، أي موجع.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل ومن تعريف الجزأين قصر قلب، أي لست كما تحسبون أنكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإني نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم(١).

وأيضا من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، فيخْفِضْ جَناحه لِلْمُؤْمِنِينَ، قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء: الآيات ٢١٤: ٢١٦).

فقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أي: الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأن من هو أقرب إلى المرء أولى روي أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: «لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي» قالوا نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد»(٢).

وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معترض بين الجملتين ابتدارا لكرامة المؤمنين قبل الأمر بالتبرؤ من الذين لا يؤمنون، وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس، وخفض الجناح: مثل للمعاملة باللين والتواضع.

وزاد هاهنا ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ كيلا يذهب الوهم إلى أن خفض الجناح وهو التواضع ولين الجانب مختص بالمؤمنين من عشيرته، وإنما لم يقتصر على قوله ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ لأن

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣/ ٢١٧)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤/ ٨١، ٨٢، ٨٣)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٤/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان – باب في قوله: (أنذر عشيرتك الأقربين)، حديث رقم١٩٤، (١/١٩٣).

كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين، وسبب الجمع بين اللفظين هو أنه سماهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، أو أراد بالمؤمنين المصدّقين بالألسنة فزاد قوله ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ ليخرج من صدّق باللسان دون الجنان، أو صدق بهما ولم يتبعه في العمل، ومِنَ للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان، والغرض من هذا البيان التنويه بشأن الإيمان وجبر لخاطر المؤمنين من قرابته، ولذلك لما نادى في دعائه صفية قال: «عمة رسول الله» ولما نادى فاطمة قال: «بنت رسول الله» تأنيسا لهما، فهذا من خفض الجناح، ولم يقل مثل ذلك للعباس لأنه كان يومئذ مشركا.

وحين أمره بالتواضع لأهل الإخلاص في الإيمان أمره بالتبرئة من أرباب العصيان بقوله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: فَإِنْ عَصَوْكَ ولم يتبعوك، فقل إني بريء مما تعملونه أو من أعمالكم، وهو تفريع على جملة: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) أي فإن عصوا أمرك المستفاد من الأمر بالإنذار، أي فإن عصاك عشيرتك فما عليك إلا أن تتبرأ من عملهم، فالتبرؤ إنما هو من كفرهم وذلك لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم وإعادة النصح لهم كما قال: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى: ٢٣)، وإنما أمر بأن يقول لهم ذلك لإظهار أنهم أهل للتبرؤ من أعمالهم فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه[١].

ثانيًا: من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، الأخذ بالعفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين:

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ١٥١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٥/ ٢٨٧).

وذلك في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) فقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشق عليهم، من العفو الذي هو ضد الجهد أي: خذ من الناس في أخلاقهم، وأقوالهم، ومعاشرتهم، ما تيسر لا ما يشق عليهم، لئلا ينفروا فالعفو على هذا بمعنى السهل والصفح عنهم، وهو ضد الجهل والتكليف، أو خذ العفو عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة، فالعفو على هذا بمعنى السهل أو بمعنى الكثرة، وقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال وهو فعل الخير، وقيل العرف الجاري بين الناس من العوائد، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها.

فلا تكافي السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم واحلم عنهم، قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال- عليه السلام -: «يا جبريل ما هذا؟ قال يا محمد إن ربك يقول هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك» وهو مطابق للفظ الآية لأنك لو وصلت من قطعك، فقد عفوت عنه، وإذا آتيت من حرمك فقد آتيت بالمعروف، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين.

فالحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: خذ العفو ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل فيه أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف هو كل أمر عرف أنه لابد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه، وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣) وقال في صفة أهل الجنة: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾ (الواقعة: ٢٥) فهذه الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير(١).

ثالثًا: من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، دْفَعْ السيئة بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥) وقوله – عز وجل –: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ﴾، أي: قرر الله تعالى لنبيه – ﷺ – أن الحسنة والسيئة لا تستوي، أي فالحسنة أفضل، وكرر في قوله: ﴿

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣/ ٤٦/٤٧)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٣١٧، ٣١٨)، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للفخر الرازي (١٥/ ٤٣٤، ٤٣٥).

﴿ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ تأكيدا ليدل على أن المراد: ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة، فحذف اختصارا ودلت لا على هذا الحذف.

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أمورك وما يعرضك مع الناس، ومخالطتك لهم، بالفعلة، أو بالسيرة التي هي أحسن السير والفعلات، فمن ذلك بذل السلام، وحسن الأدب، وكظم الغيظ، والسماحة في القضاء والاقتضاء وغير ذلك، وإذا فعل المؤمن هذه الفضائل عصمه الله من الشيطان وخضع له عدوه، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء، ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن وهو جزء منه، فقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ على وجهين:

أحدهما: ادفع سيئتهم في حادث الوقت بحسنة تكون منك إليهم، أي: إذا أحسنت إليهم كفوا هم عن الإساءة إليك في حادث الوقت، فيكون كقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩).

والثاني: أي ادفع سيئتهم بالعفو والصفح عنهم، أي: لا تكافئهم بمساويهم ولكن تجاوز عنهم واصفح، فإذا فعلت ذلك يصير الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، أي: لا يعاد ذلك، فقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ دخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود وليا حميما، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم، والحميم: هو القريب الذي يحتمّ للإنسان، والضمير في قوله: ﴿ يُلَقَّىٰهَآ ﴾ عائد على هذه الخلق التي يتضمنها قوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ على أمر الله تعالى والقيام بجميع أموره، أي: لا يعطى هذه المعاملة التي ذكر من الدفع بالحسنة والصفح عن

المجرم ولا يوفق لذلك إلا من عزم على الصبر على ما أمر الله تعالى، ومن كان له حظ ونصيب عظيم عند الله تعالى، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ مدح بليغ للصبر، لأن الصبر للطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها، وروي أن رجلا شتم أبا بكر الصديق بحضرة النبي ﷺ فسكت أبوبكر ساعة، ثم جاش به الغضب فرد على الرجل، فقام النبي – عليه السلام – فاتبعه أبوبكر وقال: يا رسول الله قمت حين انتصرت، فقال إنه كان يرد عنك ملك، فلما قربت تنتصر، ذهب الملك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه، ويحتمل أن يريد: ﴿ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الجنة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعدا، قال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم[١].

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٥/ ١٦)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/ ٨١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٣٦٢).

تتمة وخاتمة

بعد الدراسة الموضوعية لآيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – وأثارها، وتتمة لهذا الموضوع واكمالا للفائدة المرجوة بفضل الله عز وجل نذكر نبذة موجزة عن وصف القرآن الكريم، والشريعة الاسلامية بالرحمة، في ضوء القرآن الكريم.

فرسولنا رسول الرحمة، والكتاب المنزل عليه هدي ورحمة، وشريعته مبنية على الرحمة فقد وصف الله تعالي القرآن المنزل علي رسول الرحمة بالرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥٧).

قوله: ﴿ **أَوْ تَقُولُواْ** ﴾ يعني: لكي لا تقولوا ﴿ **لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ** ﴾ يعني: أصوب ديناً منهم ﴿ **فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ يعني: حجة من ربكم وهو محمد – عليه السلام – والقرآن، أي: هدى من الضلالة وكل شبهة، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ذلك منه رحمة ونعمة.

وإنما قال: ﴿ **جَآءَكُم** ﴾ ولم يقل: (جاءتكم)؛ لأنه انصرف إلى المعنى يعني: البيان، ولأن الفعل مقدم. ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ** ﴾ بمعنى: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب. ويقال: قد جاءكم ما فيه من البيان وقطع الشبهات عنكم.

ثم قال: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ** ﴾ يعني: لا أحد أظلم وأشد في كفره ممن كذب بآيات الله تعالى ﴿ **وَصَدَفَ عَنْهَا** ﴾ يعني: أعرض عن الإيمان بها، ﴿ **سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ**

﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ يعني: يعرضون ﴿ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ أي: شدة العذاب بما كانوا يعرضون عن الآيات(١).

وأيضا قد وصف الله تعالى القرآن المنزل علي رسول الرحمة بالرحمة وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢).

قَوْله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ ﴾ أَي: أتيناهم بالقرآن ﴿ فَصَّلْنَٰهُ ﴾ أَي: بينا ما فيه من الحلال والحرام ويحتمل قوله: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ ﴾ أي: فرقناه في إنزاله، لم ننزله جملة واحدة، ففرقناه في الإنزال على قدر النوازل بهم؛ ليعلموا حكم كل آية نزلت بالنوازل التي وقعت بهم، وهذا أهون وأيسر على الطباع من معرفة ما فيه إذا نزل جملة.

وقوله: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي: يحتمل وجوها:

أي: بيناه بالحجج والبراهين على علم منه أن الخلائق لا تقوم بإتيان مثله؛ ليعلم أنه من عنده نزل، أو أنزله مفصلا على علم منه بمن يصدقه ويتبعه، وبمن يكذبه ولا يتبعه.

أو على علم منه بِمَا يصلحهم، وقيل: معناه: على علم بالثواب والعقاب.

وقوله– عز وجل–: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ هُدًى ﴾ أَي: هاديا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي: ذو رَحْمَة.

فهو هدى ورحمة للمؤمنين، وعمى على الكافرين؛ على ما ذكر: ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (فصلت: ٤٤)، خص المؤمنين بالهدى لهم؛ لأنهم هم المخصوصون بالانتفاع به

(١) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٩٦)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٣٢٥).

دون أولئك، وعلى أولئك عمى ورجس؛ على ما ذكر، وصار للمؤمنين حجة على أولئك[١].

وأيضا قد وصف الله تعالي القرأن المنزل علي رسول الرحمة بالرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣، ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ ﴾ كانوا يسألون النبي الآيات (تعنتا) ويستكثرون منها، فإذا لم يقرأ عليهم آية قالوا: ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ ﴾، أَي: هلا اختلقتها وقلتها من تلقاء نَفسك، وأمكن أن يكون سؤال الآية من المؤمنين؛ فإذا كان السؤال من المؤمنين فهو سؤال الاسترشاد وطلب زيادة الهدى، وإن كان من الكفار فهو سؤال الاستهزاء والتعنت، ثم أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه، ثم أخبر أنه ﴿ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

هذا القرآن بيان من ربكم يبصر به من لم يعاند ولم يكابر عقله، وأنه البيان من الحق والباطل، ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: ورحمة من العذاب.

وقوله – عز وجل –: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ الآية.

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة، أي وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه، فاستمعوا له، أي أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه، وأنصتوا لقراءته حتى

(١) تفسير السمعاني (٢/ ١٨٧)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨).

تنقضي، إعظاما له واحتراما، فأمر الله- تعالى- بالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له إذا قرئ، وإن كان في العقل أن من خاطب آخر بمخاطبات يلزمه الاستماع إلى ما يخاطبه ويشافهه، فالله- سبحانه- إذا خاطب بخطاب أولى أن يستمع له والأمر بالاستماع إليه لوجهين:

أحدهما: مقابل ما كانوا يقولون: ﴿ **لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** ﴾، أمر- عز وجل- المؤمنين بالاستماع إليه مكان قولهم: (لا تسمعوا لهذا القرآن) وأمر بالإنصات مكان ما يقولون: (والغوا فيه).

والثاني: يجوز أن يكون أمر بالاستماع إليه في الصلاة؛ على ما قال بعض أهل التأويل أنه في الصلاة.

ثم الاستماع إليه يكون لتفهم ما أودع فيه من الأمر والنهي، والوعد، والوعيد، وغيره، والإنصات للتعظيم والتبجيل، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته(١).

وأيضا قد وصف الله تعالى القرآن المنزل على رسول الرحمة بالرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس:٥٧).

قوله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ أي: تزكية نفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب، والتحريض على

(١) تفسير السمعاني (٢/ ٢٤٤)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٥/ ١٢٤: ١٢٦)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٥/ ٢٤٥).

الأعمال الموجبة للثواب، الباعثة على الخوف والرجاء ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: القلوب من أمراضها، كالشك والنفاق، والغل والغش، وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق، والحكم الموجبة لليقين، وتصفيتها بقبول المعارف، والتنوّر بنور التوحيد ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: لنفوسكم من الضلالة، فهو يدعو الي كل خير، ويهدي إليه ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لمن آمن به و اتبعه وتمسك به، بالنجاة والرحمة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم(١).

وأيضا قد وصف الله تعالي القرأن المنزل علي رسول الرحمة بالرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩).

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ يعني نبيهم لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ على أمتك، أي: اذكر ذلك اليوم، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وما يلحق الكافرين فيه من تمني كونهم ترابا، لهول المطلع، وقد ذكر ذلك في آية النساء في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤١- ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ مستأنف، أو حال بتقدير (قد) و(التبيان) من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه، أي تبيينا لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس محتاجون إليه في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، تبيانا لأمور الدين أما في الأحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالإجماع أو بقول

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٣٥)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٦/ ٥٥).

الصحابة أو بالقياس لأن مرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله – عليه السلام – وطاعته، ويحتمل قوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: ما ذكر في هذه السورة؛ لأنه ذكر فيها جميع أصناف النعم وجواهرها، ووجوه الأسباب التي بها يوصل إليها، وذكر فيها ما سخر لهم من أنواع الجواهر، وفيه ذكر ما وعد وأوعد، وأمر ونهى، وذكر ما حل بالأعداء وما ظفر أولياؤه بهم، وفيه ذكر سلطانه وقدرته، وذكر سفه الكفرة وعنادهم، وذكر ما يؤتى ويتقى؛ فذلك تبيان لكل شيء.

أو أن يكون في الكتاب تبيان كل شيء، وفي القرآن ما ذكرنا: من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبار الأمم الماضية وأمثالهم، وجميع ما يؤتى ويتقى.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وهدى أي ودلالة إلى الحق، وهداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي لهم بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد، ونجاتهم من العذاب، وبشارة لهم بالجنة، وبالسعادة الأبدية[1].

وأيضا قد وصف الله تعالي القرآن المنزل على رسول الرحمة بالرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠).

سمى الله – تعالى – هذا القرآن: بصائر، وهو ما يبصر به، ومرة: هدى، وبيانا، ورحمة، ونورا، ونحوه، وهو هكذا، هو هدى، وبيان، ونور، وبصيرة لمن اتبعه ونظر إليه بعين التعظيم والتبجيل وقبله، إذ يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد، ويبين ما لهم وما عليهم، فجعل ما فيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر في القلوب

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٤٠١، ٤٠٢) وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/ ٥٥٤)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٢/ ٢٢٩).

كما جعل روحا وحياة، أي فهو تشبيه بليغ، ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: من العذاب ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي يطلبون اليقين، لمن آمن وأيقن[1].

خص الله –تعالي –الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة:

فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة إما لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم – عليه السلام – كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى – عليه السلام – قريبة منها في ذلك وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها مثل شريعة التوراة فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، فإن كثيرا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ وقال: ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

لا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابا منه لموسى – عليه السلام –: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٦– ١٥٧) الآية. ففي قوله تعالى: ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٤٣٠)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/ ٢٢٤).

للناس بها في سائر أحوالهم وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وما يتخيل من شدة في نحو القصاص، والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ** ﴾ (البقرة: ١٧٩) فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

فليس في القتال ترك الرحمة؛ بل هو من أبلغ الرحمة وتمامها؛ إذ يحملهم على الإيمان، وترك التكذيب؛ فتعلو منزلتهم، ويشرف قدرهم في الدنيا والآخرة، وأيضا لأن الحجة في، القتال ليس في القتل؛ لأنهم إذا خافوا القتال، تركوا التكذيب، وأقبلوا على الداعي؛ ألا ترى أنه ذكر أن القوم قبل أن يفرض عليهم القتال، كان يدخل الواحد منهم بعد الواحد في هذا الدين؛ فلما شرع القتال، جعلوا يدخلون فيه فوجا فوجا، وقبيلة قبيلة.

ثم إباحة القتل يكون بالضرورة؛ لأنهم إذا علموا أنهم لا يقتلون، لم يقع لهم الخوف بالقتال، وإذا لم يخافوا تركوا الإجابة؛ فشرع القتل فيه؛ لتحقيق الخوف؛ فلم يكن فيه ترك الرحمة، وهو كقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وفي إقامة القصاص تلف النفس، وليس فيه إحياء، ولكن وجه الإحياء فيه: هو أن القاتل إذا فكر في قتل نفسه بقتل صاحبه، ردعه ذلك عن القتل؛ فيكون فيه إحياء النفسين جميعا؛ فيصير إيجاب القصاص سببا للإحياء في الحقيقة، وإن كان في الظاهر سببا للإتلاف؛ فكذلك هؤلاء إذا أيقنوا بالقتل بامتناعهم عن الإجابة، تركوا الامتناع، وأقبلوا على الإجابة؛ فيكون موضوع القتل للرحمة في التحقيق، وإن كان في الظاهر خارجا مخرج ترك الرحمة، وأما رحمة الإسلام، بالأمم غير المسلمين، فإنما تعني رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه، وهم أهل الذمة، ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

وتضمن الشريعة الرحمة بالعالمين الممثلة في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ تنصرف لنوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان، في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به، إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩) وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ٥- ٧)، وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان، ولم تأذن في غير ذلك، ولذلك كره صيد اللهو، وحرم تعذيب الحيوان، فقد نهى — ﷺ — أن يحول أحد بين حيوان أو طير وبين ولده، وأيضا نهي عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ شيء فيه الروح غرضا، يتعلم فيه الرمي.

وقد بين – ﷺ – أيضا، أن الاساءة الي الحيوان ربما أودت بالعبد إلى النار، فعن عبدالله بن عمر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)(١).

ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان، حيث بين الرسول – ﷺ – أن الاحسان الي الحيوان من موجبات المغفرة فعن ابي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال: (بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا، فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثري من العطش، فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم امسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وان لنا في البهائم أجرًا؟، قال في كل كبد رطبة أجرا)(٢).

أما المؤذي والمضر من الحيوان فقد أذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم(٣).

فقد خصت الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور: ٥٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب بدء الخلق – باب خمس من الدواب – حديث رقم ٣٣٢٠ (٣٤١/٤) ط:التاصيل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب الشرب – باب فضل سقي الماء – حديث رقم ٢٣٧٤ (٣/ ٣٣٠) ط:التاصيل.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٦٧، ١٧٠)، وتأويلات أهل السنة للماتريدي (١٠/ ٣٨١، ٣٨٢) بتصرف وإيجاز.

قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ معطوف على ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ وما اعترض بينهما كان تأكيدًا، أو على مقدر يستدعيه السوق، أي: فآمنوا، واعملوا الصالحات، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. أو فلا تكفروا وأقيموا، وكرر الأمر بطاعة الرسول، تأكيدا لوجوبها، بقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وخصه بالطاعة لأن طاعته طاعة الله، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم(١) فطاعته تثمر رحمة الله ومحبته قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١).

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، ثم قال: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركته – صلى الله عليه وآله وسلم– فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – في عبادته والحث على مطاوعته.

قال الأزهري محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٩/ ٢٥٧) ومحاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٤٠٣، ٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاريّ في صحيحه: كتاب:الاعتصام بالكتاب والسنة – باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، ج٩/ ص٣٩١ .

والمعنى قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره وأوامر رسوله مطيعين لهما فإن اتباع الرسول من محبة الله وطاعته، وفيه حث على اتباعه – صلى الله عليه وآله وسلم –.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ يعني أن من غفر له أزال عنه العذاب ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه، وهذا تذييل مقرر لما قبله[1].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢) وفتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (٢/ ٢١٨، ٢١٩).

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله ونعمته تتم الصالحات بعد أن انتهيت من هذا البحث فقد استخلصت النتائج الآتية:

١- إن معظم الفضائل التي تتعدي آثارها النافعة للآخرين ترجع إلي خلق الرحمة.

٢- أن للرحمة في القرن الكريم معان متعددة منها: * بعثة الرسل وإنزال الكتب، والجنة، والمطر، والرزق، والقرآن، والهداية، والعصمة من العصيان، والعافية من الابتلاء، والنجاة من عذاب النار، والثناء علي سيدنا إبراهيم، والنصرة على أهل العدوان، والألفة والموافقة بين أهل الإيمان، وإجابة دعوة زكريا، والعفو عن ذوي العصيان.

٣- أن الرحمة عند البشر رقة تقتضي الاحسان للمرحوم، ورحمة الله – عز وجل – عطفه وإحسانه ورزقه.

٤- أن صفة الرحمن أبلغ من صفة الرحيم، ولا تقال إلا لله – عز وجل - أما صفة الرحيم، قد تقال لغير الله – تعالى – .

٥- أن رحمة سيدنا محمد – ﷺ – من مكارم أخلاقه فقد كان – ﷺ – خلقه القرآن.

٦- أن من خصائص رحمته – سبحانه – علي النبي - ﷺ – أن قواه حتي صحب قومه، وصبر علي تبليغ الرسالة لهم، فلان لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إياه راحما.

٧- أن رسول الله - ﷺ - رحمة للمؤمنين؛ إذ استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الهلاك إلى النجاة، يشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا.

٨- أن رحمته – ﷺ – لا تقف عند الجانب الشخصي من قول وسلوك فقط، بل قرنها الجانب الدعوي المتمثل في حرصه – ﷺ – لإنجاء قومه من النار والفوز بالجنة.

٩- أن الرسول – ﷺ – اتحد بالرحمة وانحصر فيها، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة، فخص الله محمدا – ﷺ – بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء.

١٠- أن رحمته – ﷺ – عامة للإنس من أطفال، ونساء، وعبيد مؤمنهم وكافرهم، وللجن، والحيوان، والطير وحتي الجماد إذ حن له جذع النخل وسمع الصحابة منه صوتا كصوت البعير فأسرع إليه النبي – ﷺ – فاحتضنه حتي سكن فصلوات ربي وسلامه عليك سيدي يا رسول الله.

١١- أن من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، صبره علي استهزاء قومه وتكذيبًهم له، وصبره علي أذي قومه بقولهم ساحر، وشاعر، ومجنون وهجرهم هجرا جميلا لا جزع فيه.

١٢- أن من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ – عفوه وصفحه عن غير المؤمنين، وبذلك يحسن والله – عز وجل – يحب أهل الإحسان.

١٣- من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ – عفوه وصفحه عن قومه، صفحا جميلا، بأن يتجاوز عنهم، ولا يعجل عليهم بالانتقام، وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف.

١٤- من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ – خْفِضْ جَناحه لِلْمُؤْمِنِينَ، وذلك بالتواضع لهم والرفق بهم، واللين في المعاملة.

١٥- من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ – الأخذ بالعفو والأمر بالعرف والإعراض عن

الجاهلين.

١٦- من آثار رحمة سيدنا محمد - ﷺ - دفع السيئة بالتي هي أحسن.

١٧- أن رسولنا رسول الرحمة، والكتاب المنزل عليه هدي ورحمة لمن آمن به و اتبعه وتمسك به، بالنجاة والرحمة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم.

١٨- أن شريعته - ﷺ - مبنية علي الرحمة، لأنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة.

١٩- أن كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، فصلوات ربي وسلامه عليك سيدي يا رسول الله.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

المراجع

١ – القرآن الكريم.

مراجع التفسير:

٢ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبوسعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي. ط:دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٣ – بحر العلوم لابي الليث نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.

٤ – تأويلات أهل السنة لمحمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي – ط: دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.

٥ – تحرير المعنى السديد وتنوير الفعل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونس – ط: الدار التونسية – تونس.

٦ – التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله ابن جزي الكلبي الغرناطي – ط: دار الأرقم بن الأرقم — بيروت.

٧ – تفسير القرآن لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني – ط: دار الوطن – الرياض — السعودية.

٨ – تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. ط: دار الكتب العلمية .

٩ – التفسير الكبير – مفاتيح الغيب لأبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي – ط: دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١٠ –الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي – ط:دار الكتب المصرية – القاهرة.

١١ –الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس شهاب الدين لحمد بن يوسف بن عبد الدايم المعروف بالسمين الحلبي– ط دار القلم دمشق .

١٢ –روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي – ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

١٣ –غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسن النيسابوري – ط:دار الكتب العلمية – بيروت.

١٤ –فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي أبي لطف الله الحسيني النجاري القنوجي – ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – صيدا – بيروت.

١٥ –فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني – ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق – بيروت.

١٦ –لطائف الاشارات لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري – للقشيري، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر.

١٧ –محاسن التأويل لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي – ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

١٨ –مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي – ط: دار الكلم الطيب.

١٩ –المحرر الوجيز في تفسير الكتاب لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية الأندلسي – ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠ –النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي – الشهير بالماوردي – ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

مراجع علوم القرآن:

١ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبوطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى – ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ط: لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة.

٢ – المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.

٣ – الوجوه والنظائر لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري – ط: مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

القراءات:

١ – الكامل في القراءات العشر والاربعين الزائدة عليها – ليوسف بن علي بن محمد أبو القاسم الهذلي – ط: مؤسسة سما.

مراجع الحديث:

١ – سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان السجستاني – ط: دار الفكر .

٢ – سنن الترمذي (الجامع الصحيح لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة) ط: دار الحديث.

٣ – صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) للإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري – ط: التأصيل .

٤ – صحيح الإمام مسلم – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٥ – مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل – ط: دار الحديث.

معاجم اللغة:

١ – القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ط /مؤسسة الرسالة

٢ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣ – لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، جمال الدين بن منظور – ط: دار صادر – بيروت.

٤ – معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني – ط: دار الفكر.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث: ٤٠٢
المقدمة ٤٠٤
أولاً: أهمية الموضوع: ٤٠٥
ثانيًا: أهداف الموضوع: ٤٠٦
ثالثًا: مشكلات البحث وأسئلته: ٤٠٦
رابعًا: حدود البحث: ٤٠٧
خامسًا: الدراسة السابقة: ٤٠٧
سادسًا: منهج البحث: ٤٠٧
سابعًا: خطة البحث: ٤٠٨
المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات ٤١١
المطلب الأول: مفهوم الرحمة، وآثارها من رأفة، وغيرها، في اللغة، وفي الاصطلاح: ٤١١
مفهوم الرحمة في اللغة: ٤١١
الرأفة في اللغة: ٤١٣
الصبر في اللغة: ٤١٣
العفو في اللغة: ٤١٤
العرف في اللغة: ٤١٥
الإعراض في اللغة: ٤١٦
الصفح في اللغة: ٤١٦
مفهوم الرحمة في الاصطلاح: ٤١٧
المطلب الثاني: الفرق بين مفهوم الرحمة عند البشر، ورحمة الله –عز وجل– والفرق بين صفتي الرحمن الرحيم ٤٢٢
الفرق بين صفتي الرحمن الرحيم: ٤٢٤

المبحث الثاني: آيات الرحمة الخاصة بالنبي – ﷺ – دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم ٤٢٨
المبحث الثالث: آثار الرحمة الموصوف بها النبي – ﷺ – في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية ٤٥١
المطلب الأول: دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من صبر، وعفو وصفح، في ضوء القرآن الكريم: ٤٥١
أولاً: الصبر: ٤٥١
ثانيًا: العفو والصفح: ٤٥٨
المطلب الثاني: دراسة موضوعية لآثار رحمته – ﷺ – الموصوف بها من: خفض الجناح للمؤمنين، والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين، و دفع السيئة بالحسنة، في ضوء القرآن الكريم ٤٦٣
أولاً: حفض الجناح: ٤٦٣
ثانيًا: من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، الأخذ بالعفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين: ٤٦٧
ثالثًا: من آثار رحمة سيدنا محمد – ﷺ –، دْفَعْ السيئة بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: ٤٦٩
تتمة وخاتمة ٤٧٢
الخاتمة ٤٨٤
المراجع ٤٨٧
فهرس الموضوعات ٤٩١